جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

من بلاغة الإقناع والإمتاع في رسالة تفضيل النطق على الصمت للجاحظ ت(٢٥٥هـ)

إعداد

د. أسماء عبدالعال محمد عبدالعال
مدرس البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات جامعة الأزهر بالقرين

(العدد الواحد والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠ أكتوبر)
(الجزء الرابع (١٤٤٤هـ/٢٠٢٢م)
الترقيم الدولي للمجلة (ISSN 2536-9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٦٢٧١/٢٠٢٢م

من بلاغة الإقناع والإمتاع في رسالة تفضيل النطق على الصمت للجاحظ ت(٢٥٥هـ)

أسماء عبدالعال محمد عبدالعال
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، جامعة الأزهر، القرين بالشرقية، مصر،
البريد الإلكتروني: asmaaabdelaal.2075@azhar.edu.eg

الملخص:

تقوم فكرة البحث المعنون بـ **(من بلاغة الإقناع والإمتاع في رسالة تفضيل النطق على الصمت للجاحظ ت(٢٥٥هـ)** على دراسة هذه الرسالة دراسة بلاغية ، وبيان الأساليب البلاغية التي يغلب عليها طابع الإقناع والإمتاع فيها ، وكان من أسباب اختياره ما تفردت به الرسالة من أسلوب أخَّاذ ، ظهر فيها جلياً سعى الكاتب لإقناع مخاطبه وإمتاعه ، وتقديم البراهين التي تجعل فكرته تعلو على فكرة خصمه، وجاءت هذه الدراسة في مقدمة ، وتمهيد ، وأربعة مباحث:**المبحث الأول:** بلاغة الإقناع والإمتاع في حجج تفضيل الصمت. **المبحث الثاني:** بلاغة الإقناع والإمتاع في دحض حجج من فضل الصمت. **المبحث الثالث:** بلاغة الإقناع والإمتاع في ذكر أدلة تفضيل الكلام على الصمت. **المبحث الرابع:** بلاغة الإقناع والامتاع في ضوابط من يقدر على الإبانة. وكان المنهج المتبع فى الدراسة هو المنهج(الوصفي التحليلي) فقسمت الرسالة إلى مقاصد وأفكار وبينت قيمة الأساليب البلاغية في الإقناع والإمتاع بأفكار الرسالة ، والتي كان من أهم نتائجها: أن الرسالة جاءت مشحونة بعدد من الحجج والأدلة العقلية والنقلية والتى تساعد على الإقناع ، وبذلك نجح الكاتب في عرض فكرته ورد رأى مخاطبه بروح فنية خالصة، وأسلوب أدبى جميل، كما نجح الجاحظ بألوانه البلاغية(بيان ، معان، بديع) في أن يبين أهمية النطق وأن يلفت الأذهان إلى دوره المؤثر في حياة البشر مع الاستطراد في عرض الفكر لتجديد نشاط قارئه.

الكلمات الافتتاحية: بلاغة، الإقناع ، الإمتاع ، النطق ، الصمت.

From the eloquence of persuasion and pleasure in the message of preferring speech over silence for aljahiz (255Hijri)

Asmaa Abdel Aal Mohammed Abdel Aal
Department of eloquence and criticism- College of Islamic and Arabic Studies for Girls in EL-Qurain Sharqia- Egypt- Al-Azhar University
Email *: asmaaabdelaal.2075@azhar.edu.eg*

Abstract

The idea of the research, which is titled (From the eloquence of persuasion and pleasure in the message of preferring speech over silence for aljahiz (255Hijri)) is to rhetorical study this thesis, and show the rhetorical techniques which has a persuasion and pleasure touch, The reasons why it was chosen is for the uniqueness and appealing style of the thesis, Which shows the writer striving to persuade, speak, entertain and provide proofs which makes his idea rise above his opponent idea. This study comes in an Introduction, a preface and four researches:First research: The eloquence of persuasion and pleasure in arguments for preferring silence. Second research: The eloquence of persuasion and pleasure in refutation of arguments preferred silence. Third research: The eloquence of persuasion and pleasure in mentioning evidence preferring the speech over silence. Fourth research : The eloquence of persuasion and pleasure in controlling who are able to express. The followed method in the study is (descriptive analytical) and it divided the message to points and ideas, then analyze it rhetorically to show the value of rhetorical techniques in the persuasion and pleasure in the thesis ideas. Which is one of the important results of it: the characterized text with the ease of pronunciation, clarity of meanings, correct compositions and the aljahiz success with his rhetorical colors (clear, meaningful, wonderful) in showing the importance of the pronunciation and draws the ears to his affective role in the human life. With the digression in showing new ideas to renew the reader activity.

Keywords: *Eloquence, Persuasion ,Pleasure , Pronunciation ,Silence.*

المقدمة

الحمد لله الرحمن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، ووهبه النطق باللسان ، وميزه عن باقي المخلوقات بالحجة والبرهان ، والصلاة والسلام على النبي العدنان ، وعلى آله الأطهار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد...

ترتبط البلاغة العربية بالإقناع ارتباطاً وثيقاً ، فهي تقوم على الإيضاح والبيان ، ومراعاة مقتضى الأحوال ، فلكل مقام مقال ، والمقام عنصر ضروري في تشكيل الخطاب وإنجاحه، ونجاحه يكون بإقناع المخاطب وإمتاعه، ونظرية النظم عند الإمام عبد القاهر تعد نموذجاً بلاغياً للتواصل الفعال بين المنشئ والمتلقي بجانب الأساليب البلاغية التي تعد من وسائل الإمتاع ، منها التخييل المصاحب للصورة البيانية ، وفنون البديع التي تحمل المتلقي إلى العجب والطرب ، ومواصلة الإنصات ، وقبول الفكرة.

والنثر يعد لوناً مهماً ومؤثراً من ألوان الأدب ، وهو وسيلة من وسائل التعبير عما يدور بالخواطر من أفكار، كما يكشف عن براعة الكاتب وقدرته على التعبير بأسلوب يجذب الأسماع ويحقق الإمتاع ، ومع تلك الأهمية العظيمة لم يحظ بعناية كثير من النقاد والباحثين تضاهى عنايتهم بالكلام المنظوم.

لذا وليت وجهى نحو دوحة النثر من خلال دراسة رسالة أدبية ، وقد وقع اختياري على عصر من العصور الذهبية فكراً وثقافة وهو العصر العباسي، والتي رُصِّعت ذهبيته بولادة رجل استطاع أن يشكل قفزة واسعة في الأدب واللغة ، وهو(الجاحظ) إمام الكتاب في النثر الفني في عصره ، فكان بحثى بعنوان(**من بلاغة الإقناع والإمتاع في رسالة تفضيل النطق على الصمت للجاحظ)** وهذه الرسالة تعد مثالاً رائعاً لذلك الأدب الذى عنى فيه الجاحظ بالتأكيد على رأيه في تفضيل النطق على الصمت مستدلاً بعدد من الحجج والبراهين التي تدعم فكرته ، ويقنع بها قارئه.

وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب أهمها:

١-الإعجاب الشديد بشخصية الجاحظ ، والذى كان جزءاً من التطور الحضاري والثقافي في عصره، فهو أول من بذر البذرة الأولى في الجانب المتعلق بالبلاغة الإقناعية والإفهامية.

٢-ما تفردت به الرسالة من أسلوب أخَّاذ ، ظهر فيها جلياً سعى الكاتب لإقناع مخاطبه ، وتقديم البراهين التي تجعل فكرته مقبولة ومُسلَّم بها لدى مخاطبه.

٣-محاولة الكشف عن الخصائص والأساليب البلاغية التي استخدمها الكاتب لإقناع مخاطبه بأفضلية النطق على الصمت.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج(الوصفي التحليلي) فعمدت إلى توضيح أبرز الأساليب والصور التي استخدمها الجاحظ للتعبير عن أفكاره ومقاصده ، وكان لها تأثير على السامع لجذب انتباهه وإقناعه ، وإظهار المحسنات البديعية وما دلت عليه من براعة تعبير وإمتاع للقارئ من خلال الإيقاع الصوتي ، وتناسب الألفاظ ، وبيان ما تميز به الكاتب من روعة في الأسلوب وحسن فى العرض .

كما اخترت لكل فكرة من أفكار الرسالة عنواناً يناسبها ويكشف عن أبرز المعاني التى تحملها الفكرة .

ومن ثم جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

أما المقدمة، فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج المتبع فيه، والخطة التي أعدت لإنجازه.

وأما التمهيد، فتحدثت فيه عن الإقناع والامتاع، وارتباطهما بالبلاغة العربية، كما ذكرت نبذة عن كاتب الرسالة، ولمحة حول الرسالة محل البحث.

وأما المباحث، فكانت كالتالي:

المبحث الأول: بلاغة الإقناع والإمتاع في حجج تفضيل الصمت.

المبحث الثاني: بلاغة الإقناع والإمتاع في دحض حجج من فضَّل الصمت.

المبحث الثالث: بلاغة الإقناع والإمتاع في ذكر أدلة تفضيل النطق على الصمت.

المبحث الرابع: بلاغة الإقناع والامتاع في ضوابط من يقدر على الإبانة.

وأما الخاتمة، فقد ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها في نهاية هذا البحث ثم أتبعتها بفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

والله أسأل أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم إنه ولى ذلك والقادر عليه

د. أسماء عبدالعال محمد

تمهيد

أولاً : الإقنـاع والامتـاع فـي اللغـة:

يدور معنى الإقناع في المعاجم اللغوية حول(الرضى والقبول والاطمئنان) فجاء في اللسان قنع بنفسه قنعا وقناعة: رضي، وأقنعني كذا أي أرضاني[١]، وجاء في المعجم الوسيط (اقتنع) قنع وبالفكرة أو الرأي قبله واطمأن إليه[٢]، وعرف ابن فارس الإقناع بأنه: الإقبال بالوجه على الشيء[٣].

ويأتي معنى الإمتاع في اللغة حول المنفعة والتلذذ والسرور فقال ابن فارس(متع) الميم والتاء والعين أصل صحيح يدل على منفعة وامتداد مدة في خير ، ومتع الله به فلانا تمتيعاً، وأمتعه به إمتاعا بمعنى واحد، أي أبقاه ليستمتع به فيما أحب من السرور والمنافع[٤]، وعرفه صاحب اللسان، والماتع من كل شيء: البالغ في الجودة الغاية في بابه[٥].

الإقناع والإمتاع في الاصطلاح:

لم يضع علماؤنا في العصور القديمة مصطلحاً لكل من الإقناع والإمتاع، ولكن أشاروا إليهما، فيقول الجاحظ (إذا كان الكلام صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ومنزها

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (قنع) دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة (قنع) (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) دار الدعوة.

(٣) مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، مادة (قنع) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٤) مقاييس اللغة مادة (متع).

(٥) لسان العرب، مادة (متع).

عـن الاخـتلال، مصـونا عـن التكلـف صـنع فـي القلـوب صـنيع الغيـث فـي التربـة الكريمة)[١]، وهذا النص السابق ينبه على قبول الفكرة عند المتلقي مع إمتاعه.

ويقول الرماني في تعريف البلاغة(إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)[٢]، وإعمال المعاني في القلوب دلالة على كمال الإقناع بها وشدة تأثيرها.

ومن تعريفات الإقناع في العصر الحديث(هو عملية إيصال الأفكار والاتجاهات، والقيم والمعلومات، إما إيحاءً أو تصريحاً عبر مراحل معينة بوجود شروط موضوعية، وأخرى ذاتية مساعدة وهذا عن طريق عملية الاتصال)[٣].

وبالبحث عن تعريف الإمتاع في الاصطلاح ، لم أقف على مفهوم له في كتب البلاغة ، وإنما لاحظت أنه تذوق ذاتي ليس له قواعد ثابتة يشعر المتكلم به عندما يستطيع إفهام مخاطبه ، وإقناعه بفحوى خطابه من خلال الأساليب البلاغية من بيان ، ومعان، وبديع، ويشعر به المتلقي عندما يدرك الهدف من النص وتنفى عنه عناصر الملل أثناء تلقى الخطاب.

الإقناع والإمتاع وارتباطهما بالبلاغة:

ترتبط البلاغة العربية بالإقناع ارتباطاً وثيقاً ، فهى تقوم على الإيضاح والبيان ، ومراعاة مقتضى الأحوال ، فلكل مقام مقال ، والمقام (عنصر ضروري في تشكيل الخطاب وإنجاحه)[٤] ، ونجاحه يكون بإقناع المخاطب وإمتاعه.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٨) دار الهلال، بيروت ، ١٤٢٣ هـ.

(٢) النكت في إعجاز القرآن الكريم ضمن ثلاث رسائل للرماني، ص(٧٦)، تحقيق محمد خلف الله، د/ محمد زغلول سلامة ، ط٣، ١٩٧٦م، دار المعارف.

(٣) الإقناع في قصة إبراهيم عليه السلام – مقاربه تداولية– رسالة ماجستير ، إعداد بو صلاح فايزة، إشراف د/ عيسى عبدالحليم ، ا. د عزوز أحمد ، ص(١٥) ٢٠٠٩، ٢٠١٠م.

(٤) الإقناع الأدبي والبلاغي والإشهاري لمحمد البوزيدي (مقالة).

ويظهر لنا هذا الارتباط من خلال ما نقله الجاحظ عن العتابي في تحديد معنى البلاغة من أنَّ (كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ)[١] ، ويفهم من هذا التعريف أن الأصل هو القدرة على إيصال الدلالة للمتلقي ، ولكن يأتي لنا إمام الكتاب معقباً(وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء)[٢] ، وبينما يركز العتابي على الجانب الإقناعي بالنسبة للمتكلم يأتي تعقيب الجاحظ على كلامه ليسحب المصطلح نحو قطب الفن والتخييل فينبه إلى ما يجب أن يكون عليه الكلام في الجمع بين الإقناع والإمتاع ، ولكن بطرائق تتفق مع سنن العرب ، ومجارى كلامهم[٣].

ونرى العسكري يعرف البلاغة قائلاً: البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه فى نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن[٤].

وإذا نظرنا إلى تعريف البلاغة قبل الإمام عبد القاهر وجدناه قائما على إبراز الغاية من البلاغة ، وهى توصيل الكلام إلى قلب المخاطب ، والتأثير فيه ، أما بعد الإمام فقد صبغ تعريفها بصبغة علمية ركزت على خصائص الكلام الذى يقنع ، ويؤثر في الآخرين، والمقام الذى يؤدى فيه ، والمعروف بمقتضى الحال.

ونظرية النظم عند الإمام عبد القاهر، والتى قامت على مراعاة أحوال الكلمات ، وأحوال المخاطب ، تعد نموذجاً بلاغياً للتواصل الفعال بين المنشئ والمتلقي بجانب

---

(١) البيان والتبيين (١/ ١١٢).

(٢) السابق (١/ ١٤٨).

(٣) البلاغة العربية بين الإقناع والإمتاع ، د/ مسعود بودوخة ، ص(١٣) دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط١، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٥م،

(٤) الصناعتين لأبى هلال العسكري ، ص(١٠) تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العنصرية ، بيروت ،عام النشر١٤١٩هـ.

الأساليب البلاغية التي تعد من وسائل الإمتاع منها التخييل المصاحب للصورة البيانية، وفنون البديع التي تحمل المتلقي إلى العجب والطرب ، ومواصلة الإنصات ، وقبول الفكرة.

أساليب الإقناع والإمتاع في البلاغة العربية:

هناك بعض الألوان البلاغية التي يغلب عليها طابع البرهان والحجة والإقناع منها:

١ – المذهب الكلامي:

وهو أن يورد المتكلم على صحَّة دعواه حُجَّة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب[١]، وهذه التسمية تنسب للجاحظ، وهذا اللون من البديع يكون مقبولاً ما لم يكن متكلفاً.

٢ – حسن التعليل:

هو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي[٢] ، وهو وإن كان على جهة الاستطراف ، لكن القصد هو تقريره في ذهن السامع ، وهو مبنى على الادعاء والاصرار ، وهما بدورهما يحملان على الإقناع والإمتاع.

---

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص:(٣٠٥) ت/ د. يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية، بيروت.

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي (٤/ ٦١٧) مكتبة الآداب، ط١٧: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣- الطباق والمقابلة:

وهما من المحسنات البديعية التي تعمل على تثبيت المعاني من خلال التقابل اللفظي فضلاً عما يضيفاه من موسيقى تجذب الأذهان، وتستميل القلوب، فتحقق الإمتاع بجانب الإقناع.

٤- الجناس والسجع:

فظاهر الكلام في الجناس أنه مكرر، ولكن يفاجئ السامع بالمعنى الجديد المغاير للسابق، وهنا تهتز النفس وتتشوق ، بالإضافة إلى الموسيقى التي تحدث بسبب تماثل الكلمات، وكذلك الإيقاع الصوتي في السجع له دور لا يخفى في عملية التأثير على المتلقي ، وجذب انتباهه وإمتاعه.

٥- التكرار:

وهو تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً ، وهو من الوسائل الإقناعية التي تكشف عن حرص المتكلم على توصيل الفكرة للمتلقي.

٦-الصور البيانية المتمثلة في التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، فلا يخفى ما في التشبيه والاستعارة من تصوير وتجسيم المعنى، فالتصوير الحسى وسيلة للتوكيد والمبالغة في نقل المعنى كما يقول ابن الأثير(إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة)[١] ، وهذا يعد من أهم وسائل الإقناع والإمتاع ، وقد يعدل المتكلم في كلامه عن التصريح إلى التلميح فالكناية هي دعوى الشيء ببينة، مصحوباً بالدليل والبرهان، فيذكر الجاحظ أنه(من البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الافصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ

(١) المثل السائر لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر، الفجالة ، القاهرة(٢/ ٧٠).

في الدرك، وأحق بالظفر)[١].

٧-ومن الوسائل الإقناعية أيضاً بعض وجوه المعاني مثل القصر ، التقديم والتأخير ، الحذف ، والأساليب الإنشائية طلبية وغير طلبية، حيث يجد فيها المتكلم الحجة الكاملة ، والتأكيد البالغ الذى يقنع المخاطب ويؤثر فيه.

٨-ومن وسائل الإقناع والإمتاع أيضاً التضمين، والاقتباس، وغيرها من المحسنات البديعية التي لها تأثير فعال في نفس المخاطب، ويكسب الكلام قوة وبلاغة فيكون محل قبول السامع.

وبعد هذا العرض المختصر نستطيع القول بأن جلَّ الصور البيانية، والمحسنات البديعية، وبعض وجوه علم المعاني تحقق الإقناع والإمتاع للمتلقي إذا جاءت غير متكلفة.

(١) البيان والتبيين(١/ ٩٢).

التعريف بالرسالة[1]

❖ تقع رسالة الجاحظ (تفضيل النطق على الصمت) في ثماني صفحات ، تبدأ من صفحة ١٧٧، وتنتهى بصفحة ١٨٤، وتأتى في الجزء الرابع من رسائل الجاحظ ، وترتيبها الرسالة (الرابعة والعشرون) وقد قام الأستاذ عبدالسلام هارون بتحقيق هذه الرسائل ، ونشرتها مكتبة الخانجى بالقاهرة في أربعة أجزاء في سنة ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، وهذه هي النسخة التي اعتمدت عليها في بحثى ، وقد قام الأستاذ محمد باسل عيون السود أيضا بتحقيق وشرح هذه الرسائل ، ونشرت بدار الكتب العلمية بيروت ١٤٣٤هـ،٢٠١٣م.

❖ وتندرج هذه الرسالة تحت الرسائل الأدبية ، والأدب من ضمن الموضوعات التي تدور حولها رسائل الجاحظ، وفيها يتحدث عن أهمية الأدب في حياة المرء ، ومفهوم البلاغة وعلاقتها بالإيجاز، وهذا النوع من الرسائل يكون متبادلاً بين العلماء والأدباء لمناقشة مسألة علمية أو نقدية ، ولا تخلو من مناقشة قضية أدبية ، والرسالة التي بين أيدينا تحدث فيها الكاتب تحديداً عن أهمية النطق ، وأسباب تفضيله على الصمت ، وبيان صفات من يقدر على الكلام.

❖ وقد انتهج الجاحظ في هذه الرسالة منهجاً علمياً دقيقاً ، يعتمد على وحدة الموضوع خلافاً لما عرف عنه من كثرة الاستطراد، فعرض قول من خالفه الرأي وفضَّل الصمت على النطق، ثم بدأ يعرض رأيه وأسباب تفضيله النطق على الصمت، مستدلاً بالبراهين والحجج التي تدعم فكرته وتثبت رأيه مبيناً ضوابط المتكلم، وكل هذا بأسلوب بديع يثير الإعجاب، ويحقق الإقناع والإمتاع.

❖ حشد الكاتب في رسالته قدراً كبيراً من الأدلة والبراهين العقلية والنقلية والتي

---

(١) اكتفيت بتعريف الرسالة دون الجاحظ؛ لأن الجاحظ أديب العربية الأول، وهو غنى عن التعريف، وحتى لا أكرر بالبحث جزءاً قد تعرض له الكثير من الباحثين.

يؤكد بها على أفضلية النطق ، محققاً عوامل الإقناع والإمتاع للمتلقي، وتمثلت الرسالة في عدة محاور قمت بوضع عناوين لها حسب ما تتضمنه كل فكرة من معانى وتمثلت في الأفكار التالية:

- ❖ الفكرة الأولى: حجج تفضيل الصمت.
- ❖ الفكرة الثانية : دحض حجج من فضل الصمت.
- ❖ الفكرة الثالثة: ذكر أدلة تفضيل الكلام على الصمت ، وتمثلت تلك الحجج كالتالي:
  - الحجة الأولى: الكلام أداة الشكر.
  - الحجة الثانية: الكلام وسيلة التعبير عن الحاجات.
  - الحجة الثالثة: الكلام يميز الإنسان عن الحيوانات والجمادات.
  - الحجة الرابعة: الكلام ينجى صاحبه.
  - الحجة الخامسة: الكلام يبين فضل صاحبه.
  - الحجة السادسة: الكلام من دلائل الإيمان والشريعة.
  - الحجة السابعة: السكوت يفضى للهلاك.
  - الحجة الثامنة: الكلام سببا في مضاعفة الأجر.
  - الحجة التاسعة: نزول القرآن بلسان عربي مبين.
- ❖ الفكرة الرابعة: ضوابط من يقدر على الإبانة.

نص رسالة(تفضيل النطق على الصمت)[١]

أمتع الله بك وأبقى نعمه عندك؛ وجعلك ممّن إذا عرف الحقّ انقاد له، وإذا رأى الباطل أنكره وتزحزح عنه.

قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصّمت، وشرحت من مناقب السّكوت، ولخّصت من وضوح أسبابهما، وأحمدت من منفعة عاقبتهما وجريت في مجرى فنون الأقاويل فيهما، وذكرت أنّك وجدت الصّمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وإن كان صوابا، وألفيت السّكوت أحمد من المنطق في مواضع جمّة، وإن كان حقّا، وزعمت أنّ اللّسان من مسالك الخنا، الجالب على صاحبه البلا، وقلت: إنّ حفظ اللسان أمثل من التورّط في الكلام، وسمّيت الغبيّ عاقلا، والصّامت حليما، والساكت لبيبا، والمطرق مفكّرا. وسمّيت البليغ مكثارا والخطيب مهذارا، والفصيح مفرطا، والمنطيق مطنبا.

وقلت: إنّك لم تندم على الصّمت قطّ وإن كان منك عيّا، وأنّك ندمت على الكلام مرارا وإن كان منك صوابا.

واحتجاجك في ذلك بقول كسرى أنو شروان، واعتصامك فيها بما سار من أقاويل الشّعراء والمتّسق من كلام الأدباء، وإفراطهم في مذمّة الكلام، وإطنابهم في محمدة السّكوت.

وأتيت– حفظك الله– على جميع ما ذكرت من ذلك، ووصفت ولخّصت، وشرحت وأطنبت فيها وفرطت بالفهم، وتصفّحتها بالعلم، وبحثت بالحزم، ووعيت بالعزم، فوجدتها

---

(١) رسائل الجاحظ (١٧٧/٤إلى١٨٤) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، عام النشر: ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م.

كلام أمرئ قد أعجب برأيه وارتطم في هواه، وظنّ أنّه قد نسج فيها كلاما، وألّف ألفاظا ونسق له معاني على نحو مأخذه.

ومقصده أن لا يلفي له ناقضا في دهره بعد أن أبرمها، ولا يجد فيها مناويا في عصره بعد أن أحكمها، وأنّ حجّته قد لزمت جميع الأنام، ودحضت حجّة قاطبة أهل الأديان، لما شرح فيها من البرهان، وأوضح بالبيان...

وإنّي سأوضّح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر، ومن الحقّ ما يقهر، بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوّتي، وملكته طاقتي، بما لا يستطيع أحد ردّه، ولا يمكنه إنكاره وجحده، ولا قوة إلّا بالله، وبه أستعين، وعليه أتوكّل وإليه أنيب.

إنّي وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة.

منها: أنّك لا تؤدّي شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلّا بالكلام.

ومنها: أنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مأربك إلّا باللّسان، وهذان في العاجل والآجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرة، وفي التّدبير ظاهرة.

ولم أجد للصّمت فضلا على الكلام ممّا يحتمله القياس، لأنّك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام به، ولو كان الصّمت أفضل والسّكوت أمثل لما عرف للآدميّين فضل على غيرهم، ولا فرق بينهم وبين شيء من أنواع الحيوان وأخياف الخلق في أصناف جواهرها واختلاف طبائعها، وافتراق حالاتها وأجناس أبدانها في أعيانها وألوانها، بل لم يمكن أن يميّز بينهم وبين الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة، وكان كلّ قائم وقاعد، ومتحرّك وساكن، ومنصوب وثابت، في شرع سواء ومنزلة واحدة،

وقسمة مشاكلة؛ إذ كانوا في معنى الصّمت بالجثّة واحدا، وفي معنى الكلام بالمنطق متباينا....

والذي ذكر من تفضيل الكلام ما ينطق به القرآن، وجاءت فيه الرّوايات عن الثّقات، في الأحاديث المنقولات، والأقاصيص المرويّات، والسّمر والحكايات، وما تكلّمت به الخطباء ونطقت فيه البلغاء أكثر من أن يبلغ آخرها، ويدرك أوّلها، ولكن قد ذكرت من ذلك على قدر الكفاية، ومن الله التوفيق والهداية.

وقد ذكر الله جلّ وعزّ في قصّة إبراهيم(عليه السلام) حين كسّر الأصنام وجعلها جذاذا، فقال حكاية عنهم: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾[1] فكان كلامه سببا لنجاته، وعلّة لخلاصه، وكان كلامه عند ذلك أحمد من صمت غيره في مثل ذلك الموضع؛ لأنّه(عليه السلام) لو سكت عند سؤالهم إيّاه لم يكن سكوته إلّا على بصر وعلم، وإنّما تكلّم لأنّه رأى الكلام أفضل، وأنّ من تكلّم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن، وليس من سكت فأحسن قدر أن يتكلّم فيحسن.

واعلم– حفظك الله– أنّ الكلام سبب لإيجاب الفضل، وهداية إلى معرفة أهل الطّول.

ولولا الكلام لم يكن يعرف الفاضل من المفضول، في معان كثيرة، لقول الله(جل جلاله)، في بيان يوسف(عليه السلام) وكلامه عند عزيز مصر، لمّا كلّمه فقال:﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[2] فلو لم يكن يوسف (عليه السلام) أظهر فضله بالكلام، والإفصاح بالبيان، مع محاسنه المونقة، وأخلاقه الطّاهرة، وطبائعه الشريفة، لما عرف العزيز فضله، ولا بلغ تلك المنزلة لديه، ولا حلّ ذلك المحلّ منه، ولا صار عنده بموضع الأمانة، ولكان في

([1]) سورة الأنبياء الآية (٦٢–٦٣).

([2]) سورة يوسف من الآية (٥٤).

عداد غيره ومنزلة سواه عند العزيز، ولكنّ الله جعل كلامه سببا لرفع منزلته، وعلوّ مرتبته، وعلّة لمعرفة فضيلته، ووسيلة لتفضيل العزيز إيّاه.

ولم أر للصّمت فضيلة في معنى ولا للسّكوت منقبة في شيء إلّا وفضيلة الكلام فيها أكثر، ونصيب المنطق عندها أوفر، واللّفظ بها أشهر، وكفى بالكلام فضلا، وبالمنطق منقبة، أن جعل الله الكلام سبيل تهليله وتحميده، والدّالّ على معالم دينه وشرائع إيمانه، والدّليل إلى رضوانه، ولم يرض من أحد من خلقه إيمانا إلّا بالإقرار، وجعل مسلكه اللّسان، ومجراه فيه البيان، ولم يحمد الصّمت من أحد إلّا توقّيا لعجزه عن إدراك الحقّ والصّواب في إصابة المعنى، وإنّما قاتل النبيّ(ﷺ)المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إياه، ليقرّوا به، فإذا فعلوه حقنت دماؤهم، وحرّمت أموالهم، ورعيت ذمّتهم، ولو أنّهم سكتوا ضنّا بدينهم لم يكن سبيلهم إلّا العطب..، ولو لم يكن الكلام لما استوجب أحد النّعمة، ولا أقام على أداء ما وجب عليه من الشّكر سببا للزّيادة، وعلّة لامتحان قلوب العباد، والشكر بالإظهار في القول، والإبانة باللّسان..، وقد جاء في بعض الآثار: لو أنّ رجلا ذكر الله تعالى وآخر يسمع له كان المعدود للمستمع من الأجر، والمذكور له من الثّواب واحدا وللمتكلّم به عشرة أو أكثر، لصاحب العشر ذلك وفضل به على صاحبه إلّا عند استعماله بالنّطق به لسانه، ولم يلزم الصّمت أحد إلّا على حسب وقوع الجهل عليه. فأمّا إذا كان الرّجل نبيها مميّزا، عالما مفوّها فالصّمت مهجّن لعلمه وسائر لفضله كالقدّاحة لم يستبن نفعها دون تزنيدها، ولذلك قيل:«من جهل علما عاداه».

ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب، وجعل لسانه عربيّا، وأنزل عليه قرآنه عربيّا، كما قال الله تعالى:﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مُّبِينٍ﴾[1] فلم يخصّ اللسان بالبيان، ولم يحمد بالبرهان إلّا عند وجود الفضل في الكلام، وحسن العبارة عند المنطق، وحلاوة اللّفظ عند السّمع.

واعلم أنّ الله تعالى لم يرسل رسولاً ولا بعث نبيّاً إلّا من كان فضله في كلامه وبيانه كفضله على المبعوث إليه، فكان النبيّ (ﷺ) أفصح العرب لسانا، وأحسنهم بيانا، وأسهلهم مخارج للكلام وأكثرهم فوائد من المعاني؛ لأنه كان من جماهير العرب، مولده في بني هاشم، .. وقد قال النبي (ﷺ): «أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر»، فهذه كلّها دلائل على دحض حجّتك ونقض قضيّتك.

وإنّما أرسل الله تعالى رسله مبشّرين ومنذرين الأمم، وأمرهم بالإبلاغ ليلزمهم الحجّة بالكلام لا بالصّمت، إذ لا يكون للرّسالة بلاغ ولا للحجّة لزوم ولا للعلّة ظهور إلّا بالنّطق.

فصل منه: وليس يقوى على ذلك إلّا امرؤ في طبيعته فضل عن احتمال نحيزته وفي قريحته زيادة من القوّة على صناعته، ويكون حظّه من الاقتدار في المنطق فوق قسطه من التغلّب في الكلام، حتّى لا يضع اللّفظ الحرّ النبيل إلّا على مثله من المعنى، ولا اللفظ الشريف الفخم إلّا على مثله من المعنى، نعم وحتّى يعطى اللّفظ حقّه من البيان، ويوفّر على الحديث قسطه من الصّواب، ويجزل للكلام حظّه من المعنى، ويضع جميعها مواضعها، ويصفها بصفتها، ويوفّر عليها حقوقها من الإعراب والإفصاح.

([1]) سورة الشعراء الآية (١٩٥).

المعنى العام للرسالة

تلقى الجاحظ رسالة من أحد معاصريه فضَّل فيها الكاتب الصمت على النطق مستدلاً بحجج عرضها لنا الجاحظ في صدر رسالته ، ومنها أن اللسان الذى هو آلة الكلام يجلب على صاحبه البلا، وأن الصامت عاقل ، وحليم، ومفكر ، والناطق مهذار، ومطنب، ومفرط.

ولم يعجب الجاحظ هذا الرأي، وباعتباره رجل العقل والجدل يطلب الحقيقة بكل قواه قام بالرد على هذه الرسالة برسالة حُبلَى بالبراهين والحجج التي تدحض هذا الرأي ، فبيَّن أن هذا القول بعد فحصه وتصفحه تبين له أنه صدر عن شخص قد اغتر برأيه واتبع هواه ، وظن أنه لا يجد من ينقضه فجاء بحججه التي تظهر الحق ، واستدل على أن النطق هو وسيلة التعبير عن شكر الله سبحانه وتعالى، وبه تطلب الحاجات، وهو يميز الآدميين عن غيرهم من المخلوقات ، وقد استدل بقصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وكيف كان الكلام سبباً في نجاته ، واستدل بأنه لولا الكلام ما عرف الفاضل من المفضول، مستدلاً برأي عزيز مصر في سيدنا يوسف(عليه السلام) كما أنار الرسالة بالآيات القرآنية التي تدل على أن النطق هو من تكريم الله(عز وجل) لعباده ، لذا أرسل لهم رسلاً ، وأمرهم بالتبليغ، وختمهم بأفصح العرب لساناً عليه أفضل السلام والتسليم ، بلسان عربي مبين، ثم يستكمل الجاحظ مرافعته ، ويختمها مبيناً صفة من يقدر على الكلام، فيؤكد على أنه لا يقدر عليه إلا من اتصف بالقوة ، وتوافرت لديه مقومات الفصاحة، فيضع اللفظ في موضعه ، محققاً الغرض منه في بيان المعنى ، ثم يختم رسالته بأجِّل حكمة خلقت من أجلها الحياة ، وهى إثبات الربوبية ، وإثبات الشرائع ، وعلى هذا جاءت الرسالة معبرةً عن معانى كاتبها ، وسيلة لإثبات قوله ودحض حجة مخالفه من خلال سلسلة الاستدلالات ، والحجج التي احتوت عليها الرسالة.

المبحث الأول

بلاغـة الإقنـاع والإمتـاع فـي حجـج تفضـيل الصمـت

يقول فيه:(أمتع الله بك وأبقى نعمه عندك؛ وجعلك ممّن إذا عرف الحقّ انقاد له، وإذا رأى الباطل أنكره وتزحزح عنه، قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصّمت، وشرحت من مناقب السّكوت، ولخّصت من وضوح أسبابهما، وأحمدت من منفعة عاقبتهما وجريت في مجرى فنون الأقاويل فيهما، وذكرت أنّك وجدت الصّمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وإن كان صوابا، وألفيت السّكوت أحمد من المنطق في مواضع جمّة، وإن كان حقّا ، وزعمت أنّ اللّسان من مسالك الخنا، الجالب على صاحبه البلا، وقلت: إنّ حفظ اللسان أمثل من التورّط في الكلام، وسمّيت الغبيّ عاقلا، والصّامت حليما، والساكت لبيبا، والمطرق مفكّرا، وسمّيت البليغ مكثارا، والخطيب مهذارا، والفصيح مفرطا، والمنطيق مطنبا، وقلت: إنّك لم تندم على الصّمت قطّ وإن كان منك عيّا، وأنّك ندمت على الكلام مرارا وإن كان منك صوابا، واحتجاجك في ذلك بقول كسرى أنو شروان، واعتصامك فيها بما سار من أقاويل الشّعراء والمتّسق من كلام الأدباء، وإفراطهم في مذمّة الكلام، وإطنابهم في محمدة السّكوت).

في هذا المبحث يعرض لنا الجاحظ حجج من فضل الصمت على الكلام ، وهذه من وسائل الإقناع التي اتبعها الكاتب في مستهل رسالته ، مع أنه يخالف هذا الرأي إلا أنه قام بعرض حجة قائله ، ليأتي بعد ذلك بالرد عليها بحجة أقوى منها ، فبذلك يجذب انتباه السامع، ويشوقه لمعرفة براهينه ، ومن ثم إقناعه ثم كسب تأييده ، وقد اشتمل النص السابق على عدد من الأساليب التي تضافرت ، وكشفت عن المعاني المرادة في أوضح صورة.

فنرى الكاتب قد استهل رسالته بأسلوب يعمل على استمالة القارئ ، وجذب انتباهه، وحقق لنفسه البداية المناسبة التي مهد بها لفكرته ، فجاء بقوله:(أمتع الله بك وأبقى

نعمه عندك؛ وجعلك ممّن إذا عرف الحقّ انقاد له، وإذا رأى الباطل أنكره وتزحزح عنه)، وهى جمل خبرية لفظاً إنشائية معنى أريد بها الدعاء ، وضع فيها الخبر موضع الإنشاء عن طريق المجاز ، إما مجاز مرسل من استعمال الفعل الماضي في الطلب ، وهو مستقبل لعلاقة الضدية ، أو مجاز بالاستعارة لتشبيه غير الحاصل بالحاصل فهو يدعو للقائل بأفضلية الصمت على النطق بأن يجيد في كل قوله ، وأن يديم الله عليه نعمه ، وقد كررت(الجملة الدعائية)، وهى أسلوب من أساليب العدول عن الصياغة، ثم العودة لهذه الصياغة مرة أخرى ، وعنصر من عناصر الإمتاع ، ويعد ميل الجاحظ لإقناع مخاطبه، ولفت انتباهه إليه ، وميله له، ورغبته في توسيع الدلالة ، من أسباب تكراره لهذه الجمل الدعائية ، وإذا نظرنا للمعنى اللغوي لكلمة(أمتع) فنجد أن الماتع من كل شيء: البالغ في الجودة الغاية في بابه[١] وهنا نلمس خفة ظل الجاحظ ، والسخرية التي أرادها من هذا الدعاء ، فهو مخالف لمن فضَّل الصمت ولكن سخريته لم يرد منها الضحك ، والفكاهة وإنما غايتها(النقد الهادف ، والتقويم البَّناء ، فقد رأى جانباً من القصور ، ورأى بدوره كمفكر التصدي له)[٢]، ومما يدلل على حرص الكاتب في استمالة قلب مخاطبه وإقناعه بما يعرضه من دلائل في رسالته تلك الجمل الدعائية مرصعة بالتأكيد ، فجاء بالجار والمجرور(بك) ليؤكد أن مخاطبه هو المختص بهذا الدعاء بالإمتاع ، وبرع الكاتب في اختيار(عندك) مضافة إلى كاف الخطاب ليدل بالدعاء على تمكن النعمة واستقرارها لدى مخاطبه ، وذلك لكونها ظرف مكان ، كما نلمح إيجاز القصر في قوله:(وجعلك ممّن إذا عرف الحقّ انقاد له، وإذا رأى الباطل أنكره ، وتزحزح عنه)، كأنه أراد بالحق هو فكرته التي يدافع عنها، وهو تفضيل النطق

---

(١) اللسان، مادة (متع).

(٢) سخرية الجاحظ من خلال رسالة التربيع والتدوير، د/ عرفه حلمي ص:(٩)، مكتبة الآداب ، ط١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

على الصمت، والباطل هو رأى مخالفه، وهو تفضيل الصمت على النطق ، فالعبارة مع وجازتها تتضمن الكثير من المعاني ، ودلت دلالة واضحة على غرض الكاتب من رسالته، ومعلوم أن الكلام الجيد هو ما كشف أوله عن آخره بالإضافة إلى مجيء كلاً من(الحق ،الباطل) معرفين بالألف واللام ليدل على كمال وتمام معنيهما، وأنهما صارا معهودين ، وتظهر دقة الكاتب في اختيار أداة الشرط (إذا) التي تختص بالدخول على المقطوع به، لذا جاء بالفعل الماضي ، ومن خصائص(إذا) أنها تخلصه للاستقبال[1]، كما تدل على الموالاة والتزامن بين الشرط والجزاء ، وهذا ما يبعث على تحقيق أقصى درجات السرعة في حصول فعل الشرط ، ويدل على اقتناع الكاتب وإيمانه بفكرته، وتكرار أسلوب الشرط قد ولَّد انسجاماً دلالياً وإيقاعياً بين الشرط وجوابه، وحمل في طياته أبعاداً إيحائية تنسجم والفكرة الذى يريد أن يعبر عنها الكاتب فضلاً عن لمه لأطراف الكلام وجعله في جملة واحدة ، وهو بهذا يؤثر في المتلقي وعاملا من عوامل إقناعه.

وقد جمع الكاتب بين الشرط ودقة اختياره لألفاظه ، فنراه عبر في جانب الحق بالمعرفة ، وفي جانب الباطل بالرؤية ، فقال:(إذا عرف الحقّ انقاد له، وإذا رأى الباطل أنكره) ولم يقل(إذا عرف الحق، إذا عرف الباطل) والمعرفة والرؤية كلاهما بمعنى العلم، ولكن الرؤية فيها شيء زائد فهي نظر بالعين والقلب، فالباطل يحتاج لمعرفته مزيد من التدقيق والنظر، فالكاتب يخاطب من يخالف رأيه وهو يحتاج إلى مزيد من المعرفة والاقتناع حتى يتنحى عن فكرته ، لأنه ينكر هذه الحقيقة ، ودعم اختيار لفظ الرؤية في جانب الباطل الاستعارة المكنية فيها، حيث شبه الباطل وهو شيء معنوي بشيءٍ محسوس يرى ويشاهد ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهى الرؤية على سبيل الاستعارة التخيلية التي هي قرينة المكنية، وهنا أخرج الكاتب الباطل

(١) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، سعد الدين التفتازاني، ص(١٥٤) تحقيق د:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط١، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

من دائرة المعقولات إلى المحسوسات، مما حقق الاقناع والإمتاع للقارئ، ومن المعلوم أن(القول الاستعاري يتميز عن القول الحرفي بكونه يؤدى عدة وظائف في عملية التخاطب ، وعمليتي الفهم والتأويل بين المتكلم والسامع ، لذا فإن القول الاستعاري يعد آلية حجاجية بامتياز)[١]، وجاءت المقابلة بين الجملتين لتضفي نوعاً من الايقاع البلاغي ، والذى يبعث على يقظة القارئ ، والاستدعاء لقلبه ، والاستمالة لسمعه وبصره، فضلاً عما أحدثه من تفاعل دلالي بين الكلمات ، فزاد من أواصر المعاني ، وإيقاعاتها الدلالية، مع بيان مدى المفارقة بين الطريقين، وما يجب عليه تجاه كلا منهما، وجاءت جملة(تزحزح عنه) تأكيداً لجملة(أنكره) فإنكار الشيء ورده يقتضى الابتعاد عنه ، ويأتي الاقتباس في كلمة(تزحزح) لينير العبق القرآني رسالة الكاتب ، ويضفى على الأسلوب رونقاً ، ويكشف عن ضرورة تنحي مخاطبه بسرعة عن الباطل ، كما أن فيها اقتباساً من قول الله ﷻ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[٢]، والتزحزح معناه البعد والتنحي ، وقد برع الجاحظ في اختيار هذه اللفظة دون الابتعاد، لما تحمله من معانى الشدة والعجلة في البعد[٣]، وعضد هذا المعنى مجيء الفعل على هيئة التكثير، وإفادة التتابع من خلال التكرار الصوتي فيها فأضفى على الكلمة مزيدا من طلب الابتعاد ومنحها جرساً يناسب ثقل الباطل، وضرورة الابتعاد عنه، و ليكشف لنا عن(سعة الكاتب في الصياغة النثرية التي استلت من التكثيف اللفظي، والسعة الدلالية الخاصة بالتعبير القرآني، لكونه المرجع

---

(١) البلاغة العربية بين الإقناع والإمتاع ، د/ مسعود بودوخة، ص(١٣٦) نقلا عن عندما نتواصل نغيّر، عبد السلام عشير.

(٢) سورة آل عمران من الآية رقم(١٨٥).

(٣) اللسان مادة(زحح).

الأول في الفصاحة)[١]، واستهلال الكاتب رسالته بهذا الدعاء الذى يجذب الانتباه ، ويتناسب مع غرضه من رسالته سماه البلاغيون حسن الابتداء، لدلالته على الغرض الذى يأتي بعده ، وهو ما حث عليه علماء البلاغة واستحسنوه في الشعر والنثر، وعده ابن الأثير أحد الأركان البلاغية فقال:(أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالّا على المعنى المقصود من ذلك الكلام)[٢].

وبعد هذه المقدمة التي جاء بها الجاحظ ، وقامت بدورها في استمالة قلب مخاطبه جاء بقوله:(قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصّمت، وشرحت من مناقب السّكوت، ولخّصت من وضوح أسبابهما، وأحمدت من منفعة عاقبتهما وجريت في مجرى فنون الأقاويل فيهما، وذكرت أنّك وجدت الصّمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وإن كان صوابا، وألفيت السّكوت أحمد من المنطق في مواضع جمّة، وإن كان حقّا).

وهنا يوضح ما تضمنته رسالة من فضَّل الصمت، فيأتي بـ(قد) داخلة على الفعل الماضي لتفيد التأكيد على قراءته لهذه الرسالة ، وجاءت الاضافة في(كتابك) لتفيد الإيجاز والاختصار وهى أخصر طريق لإحضار المسند في ذهن السامع ، وعبر بالاسم الموصول(ما)، ليدل به على سعة وكثرة هذا الوصف الذى وصفه الكاتب في تفضيله الصمت ، ويأتي الكاتب ليصف لنا حرص مخاطبه واجتهاده في بيان فضيلة الصمت في رسالته من خلال تكرار صيغة الفعل الماضي مسندة إلي ضمير الفاعل(وصفت، وشرحت، ولخّصت، وأحمدت، وجريت، وذكرت، وجدت، وألفيت)

---

(١) رسائل الجاحظ دراسة في شعرية النثر العربي، ص(٥٤) رسالة دكتوراه ، محمود كاظم موات، جامعة البصرة كلية التربية للعلوم الإنسانية.

(٢) المثل السائر (٢/ ٢٢٣).

فنلمس الترادف[١]، والتناسب بين الأفعال(وصفت، وشرحت، ولخّصت) فكلها تصب في معين واحد ، وتحمل دلالة واحدة ، وهو بيان الشيء واستقصائه، وتوضيحه[٢]، فهو تكرار للمعنى دون اللفظ ، وكذلك الترادف بين الأسماء في(الصمت، والسكوت) في هذا الموضع وعلى طول الرسالة ، ولاسيما أن الرسالة تقوم على تفضيل النطق على السكوت ، وهو محور الرسالة ولبها، فأراد أن يجعل معانيه محوراً وأصلا ، وهذه وسيلة إقناعية يظهرها لنا الجاحظ في رسالته ، وهذا الترادف يكشف لنا عن قدرة الجاحظ اللغوية ، ويعبر عن حرصه في تقرير المعاني وتأكيدها في ذهن قارئه من أجل الوصول بالنص إلى الوظيفة الإقناعية، ويقول د/ شوقي ضيف في تعليقه على ظاهرة الترادف عند الجاحظ (فنحن لا نقرأ له أي عبارة حتى نجده يعنى بأصواته عناية تفضى إلى ضروب مختلفة من التوقيعات ، أو ما يسمى تلويناً صوتياً بديعاً يدفعه إلى ضروب من التكرار والترادف)[٣]، ويصف الجاحظ الصمت بالفضيلة ، والسكوت بالمناقب مبيناً حرص مخاطبه للتأكيد على أفضلية الصمت من خلال المجاز العقلي ، وذلك بأن يوصف الشيء بوصف صاحبه ، فالصامت هو الذى يوصف بالفضيلة، والساكت بالمناقب ، والفضيلة هي الدرجة الرفيعة في الفضل وهى ضد النقيصة، والمنقبة هى كرم الفعل[٤]، وكأن السكوت والصمت اكتسبا الفضل والمنقبة من صاحبهما ، فوصفا بهما ، وذلك لإثارة الخيال ، وإمتاع المخاطب واستمالة قلبه ، وذهنه بالمبالغة التي أرادها الجاحظ من هذا المجاز، وهذا الوصف قد أفاد تعظيم شأن الموصوف ، وأفادت

---

(١) الترادف هو: هو توالي الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد. التعريفات، للجرجاني ص:(٥٦)، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

(٢) اللسان، مادة (وصف، شرح، لخص).

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي(١٦٩-١٧٠) د/ شوقي ضيف، ط٩، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٠م.

(٤) اللسان، مادة (فضل)،(نقب).

الإضافة فيهما تعظيم شأن المضاف إليه، بالإضافة إلى دلالة الجمع في(مناقب) وما تفيده من التكثير والتعدد، فيظهر لنا أن مناقب السكوت كثيرة ومتعددة من وجهة نظر القائل بأفضلية الصمت ، ومن الأدلة على ذلك مجيء أفعل التفضيل في(أحمدت من منفعة عاقبتهما)، حيث يدل على المبالغة ، والتي تهدف إلى تصور المتلقي مدى أوسع في بلوغ أقصى طاقاته من التأكيد على أفضلية الصمت ، وتظهر دقة الكاتب في اختيار ألفاظه من خلال التعبير بمادة الفعل(جريت) وما تدور حولها من السرعة والحركة لتعكس بلوغ مخاطبه أقصى طاقته في ضروب القول مع تعانقه لدلالة الجمع (فنون الأقاويل) لتدل على كثرة وتعدد فنون الصمت التي عددها مخاطبه، وما أضفته كلمة(فن) من البراعة في القول ، وجاءت العبارة في ثوب الاستعارة، لتترك للعقل مجالاً بأن يسبح في الخيال ، ويحقق الإمتاع لصاحبه ، وقد حرص الجاحظ على إمتاع قارئه من خلال جناس الاشتقاق المغاير[1] في(جريت ، مجرى) والأول فعل والثاني اسم، وهو طريق من طرق ترديد الأصوات ليحقق النغم ، فيتمتع بها القارئ ويتذوقها.

ويأتي الجاحظ بعبارتين تحملان معنى واحداً وهذا من ضروب التأكيد على شغف مخالفه وحبه الشديد للصمت فيقول: (وذكرت أنّك وجدت الصّمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وإن كان صوابا، وألفيت السّكوت أحمد من المنطق في مواضع جمّة، وإن كان حقّا)، وهنا يظهر الترادف ظهوراً جلياً، حيث جاء في كل كلمة منها(وجدت ، ألفيت)، (الصمت ، السكوت)، (أفضل، أحمد)،(الكلام، المنطق)، (مواطن، مواضع)،(كثيرة، جمّة)، (صواباً، حقاً)، وهذا ضرب من التكرار، يؤكد على رغبة الكاتب القوية في الحفاظ على جرس الجمل، وانسجام الألفاظ ، وتأكيد المعاني في ذهن

(١) جناس الاشتقاق المغاير هو: أن يجمع اللفظتين أصل واحد في الاشتقاق وتكون الكلمتان اسما وفعلاً. يراجع: البديع في نقد الشعر للشيزري(١٤/١) تحقيق/ الدكتور أحمد أحمد بدوي ، الدكتور حامد عبد المجيد ، مراجعة :الأستاذ إبراهيم مصطفى ،الناشر: الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الإقليم الجنوبي ، الإدارة العامة للثقافة، (بتصرف).

قارئه، والعمل على إعمال عقله من إدراكه الألفاظ المتمايزة خارجياً، ولكنها مترادفة وتحمل مدلولاً واحداً ، وقد استعان الجاحظ بألفاظ أخرى تعينه على أداء معانيه فجاء بالأفعال الماضية لتحقق وقوع تلك المعاني، وجاء بصيغة الجمع (مواطن ، مواضع) للدلالة على كثرة وتعدد مناقب السكوت ، وأكدها بالوصف في(كثيرة، جمّة) وأفعل التفضيل(أفضل، أحمد) الذى أتى به، ليعقد لنا مقارنة بين الصمت والكلام ، ويدلل على أفضلية الصمت عند المخاطب ، وقد اعتمد على هذه الصيغة التي تعبر عن معانيه، وتؤثر في المتلقي بصورة موجزة ودقيقة.

والتنكير في(صواباً ، حقاً) قد أفاد التقليل ، وهذا يؤكد على أن من فضَّل الصمت يستحسنه، حتى ولو كان الصواب فيه قليلا ، والحق فيه ضعيفاً وليس هناك تأكيد على وصف الجاحظ له من اختياره (إن) التي تختص بعدم المقطوع به ، نادر الوقوع، فجاء الشرط مكرراً، ليعبر عن معانى الكاتب، وإقناع مخاطبه بعدم صحة رأى مخالفه، ومجانبته الصواب.

وتظهر دقة الكاتب جلية في اختيار مفرداته التي تؤثر في متلقيه في اختياره للفعل(ألفيت) وما يدل عليه من الأنسة والحب، والالتئام والاجتماع [١]، بالإضافة إلى مجيئه بصيغة الماضي، وهذا يعكس مدى اقتناع من فضَّل السكوت على الكلام برأيه وتمسكه وإلفه له، وجاء الطباق بين(الصمت ، الكلام) بهدف التأثير والإقناع، فالجاحظ يعبر لنا عن نظرية القائل بتفضيل الصمت عن الكلام، فجاء بالتضاد والذى أضفى جمالاً وجاذبية للقارئ، مما حقق له الامتاع ، وأخذ مسامعه ووجدانه(والعنصر الجماليُّ

(١) المصباح المنير للحموي، مادة (ء ل ف)، المكتبة العلمية، بيروت.

في الطباق هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أنّ المتقابلات أقرب تخاطراً إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات)[١].

وقد ربط الكاتب بين هذه الجمل بـ(الواو) العاطفة، لدلالتها على(مطلق الجمع)[٢] وسر الوصل (التوسط بين الكمالين)، واتفاق الجمل في الخبرية لفظاً ومعنى ، وجاءت (الواو) لإحداث تناسب بين الجمل في نسق متصل ، والعمل على ترابط أجزاء الفكرة الواحدة ، فهي تربط الكلام بسابقه، وتصله بلاحقه، لاستكمال صورته ، وتوضيح غرضه، مع وجود المناسبة بينهما ، حيث يتحد فيها المسند إليه، ويتلاءم فيها المسند ، ويقول الإمام عبد القاهر مؤكداً لزوم مراعاة المناسبة بين الجمل عند عطفها (لا تجيءُ حتى يكونَ المَعْنى في هذِهِ الجملة لَفْقاً للمعنى في الأخرى ومُضَامَّاً له)[٣].

ويسترسل الجاحظ في مخاطبة من مدح الصمت وذم الكلام ذاكراً أقواله، وما يريد أن يقنع به غيره من البعد عن الكلام قائلا:(وزعمت أنّ اللّسان من مسالك الخنا، الجالب على صاحبه البلا، وقلت: إنّ حفظ اللسان أمثل من التورّط في الكلام، وسمّيت الغبيّ عاقلا، والصّامت حليما، والساكت لبيبا، والمطرق مفكّرا. وسمّيت البليغ مكثارا، والخطيب مهذارا والفصيح مفرطا، والمنطيق مطنبا).

فنلحظ أن الجاحظ في هذه الفقرة قد ساق فضاءً حجاجياً مؤثراً ، ومقنعاً لدى المتلقي بأن الصمت أفضل من الكلام ، فهو يذكر مزايا الصمت التي جاءت على

---

(١) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي (٢/ ٣٨٠) دار القلم، دمشق، بيروت ، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ م.

(٢) الجنى الداني فى حروف المعاني لأبى محمد المرادي ص(١٦٢) تحقيق: د/ فخر قباوة ، أ/ محمد نديم فاضل، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ١٤١٣هـ ،١٩٩٢م.

(٣) دلائل الإعجاز ، للإمام عبدالقاهر الجرجاني ، ص(٢٢٥) تحقيق ا/محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

لسان الذين فضلوا الصمت على النطق، مستهلاً فقرته بالفعل(زعمت) وهو يكشف بمعناه الدلالي عن ضعف الرأي القائل بتفضيل الصمت ، لما يحمله هذا الفعل من دلالة الكذب والظن[١]، ومجيئه بصيغة الماضي يؤكد وقوع هذا الفعل ، كما جاء بـ(أنَّ) المشددة للدلالة على تأكيد صاحب الزعم لرأيه ، بالإضافة لاسمية الجملة ، وجاء المجاز المرسل أيضاً ليعضد المعنى من خلال إطلاق اللسان ، وإرادة الكلام ، فاللسان هو آلة الكلام الذى هو من مسالك الخنا ، والخنا هو الفحش[٢]، فاللسان هو الطريق الموصل الفحش لصاحبه ، وجاء بالجمع (مسالك) للدلالة على أنه ليس طريقاً واحداً، وإنما هي طرق عديدة، ومنها اللسان، وجاء معبراً عن اللسان بصيغة اسم الفاعل الدال على الثبوت في قوله:(الجالب على صاحبه البلا)، وهذا تأكيد للمتلقي بأن جالب البلاء للمتكلم إنما هو اللسان فهو وصف ثابت وملازم له ، وقد تقدم الجار والمجرور(على صاحبه)، لمزيد من التخصيص والتأكيد على أن هذا البلاء للمتكلم وليس لغيره ، وتظهر دقة الكاتب من خلال اختياره حرف الجر(على) وما يفيده من الاستعلاء، ليكشف لنا المبالغة في تصوير هذا البلاء الذى جلبه الكلام لصاحبه ، وكأنه غمره وشمله فصار متمكناً منه، ويواصل الجاحظ ذكر حجج من فضل الصمت وذم الكلام قائلاً:(وسمّيت الغبيّ عاقلا، والصّامت حليما، والساكت لبيبا، والمطرق مفكّرا، وسمّيت البليغ مكثارا ، والخطيب مهذارا ، والفصيح مفرطا، والمنطيق مطنبا) ويأتي الجاحظ بالفعل(سميت) مكرراً ، ليكشف لنا أن هذه التسمية إنما هي من تلقاء نفس المخاطب ، وقد وضع الأمور في غير نصابها حتى أنه خلع على الصامت صفة الذكاء والفطنة، وعلى البليغ بأنه كثير الكلام ، والخطيب مهذاراً يتسم كلامه بعدم

---

(١) اللسان، مادة(زعم).

(٢) الصحاح للفارابي، مادة (خنا) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

النفع، والفصيح مسرف في حديثه، وهذا الوصف يكشف عن دقة الكاتب في اختيار الأوصاف المناسبة التي تحقق المعنى ، فجميعها تحمل التضاد المعنوي بين الصفة وموصوفها، وكذلك جاءت على صيغ المبالغة، لتبين أن الوصف قد بلغ منتهاه ، وكذلك الجمع بين(الغبيّ، عاقلا) جاء جلياً واضحاً، ليبين لنا البون الشاسع بين من يتصف بالعقل ، ومن لا يتعقل الأمور ، وقد جاء بالسجع المتوازي[١] بين قوله:(الخنا ، البلا) ،(حليماً، لبيباً) ، (مكثاراً ، مهذاراً)، ونلاحظ اتفاق السجعات في الوزن والروى ، إذ توقظ هذه السجعات انتباه مخاطبه ليصغى لوقوعها ، ويدرك دلالتها ، وقد حشد الكاتب العبارة بالعديد من الكلمات المترادفة وهى(البليغ ، الخطيب ، الفصيح، المنطيق)، فكلها تدور حول موصوف واحد وهو المتكلم ، ومعنى واحداً من الفصاحة والبلاغة ، ومع ذلك قد وصفه بأوصاف عديدة، فوصفه بأنه كثير الكلام رديئه، مخطئاً، وبذلك حقق الترادف المعادلة الصعبة ، وهى جمع عدة معانى حول موصوف واحد فحقق الترادف جمال المعنى، وثراء العبارة ، ونلحظ أن الجاحظ جاء بهذه الكلمات على صيغة المبالغة(فعيل)، فدلت بمبناها ومعناها على تمكن الموصوف بهذه الصفات، وأنه قد بلغ الغاية في الفصاحة ، وهذا يترتب عليه تنبيه المخاطب على الخطأ الذى وقع فيه من وصفه بصفات لا تليق به، والحق ألا يوضع في هذا الموضع، ولا يوصف بهذه الصفات ، وجاء السجع المطرف[٢] في قوله:(عاقلا، حليما، لبيبا، مفكّرا، عيّا، صوابا) وعدم الارتباط بوزن واحد في هذا النوع من السجع يعطى حرية أكثر في السجعات، فنلحظ الانسياب الموسيقى بين الفقرات ينصب في سلاسة إلى النفس المتعطشة إلى الفن والجمال، والإمتاع على الرغم من اختلاف الوزن في

(١) السجع المتوازي: هو أن تكون الكلمتان الأخيرتان من السّجعَتَيْن متَّفِقَتَيْن في الوزن وفي الحرف الأخير منهما. يراجع: البلاغة العربية (٢/ ٥٠٦).

(٢) الجناس المطرف :هو الذى تتفق فيه حروف الروى وتختلف في الوزن. يراجع: البلاغة العربية (٢/ ٥٠٧) بتصرف.

السجعات ، حيث أضفى عليها شكلاً موسيقياً رائعاً ، فالنص يتحدث عن رأى مفضِّل الصمت، ووصفه للصامت، والمتكلم ومخالفته لما يقتضيه العقل، فجاء صوت المد لتنتهي به السجعات، وتبين جور هذا المخاطب في هذا الحكم ، وما يشعر به الجاحظ من ضيق واعتراض على هذا الرأي أخرجه من خلال حروف الروى(الألف) ، ولا يزال الجاحظ يبرهن لنا على تمسك المخاطب برأيه، مع عرض مبرراته التي يتقوى بها، فيقول:(وقلت: إنّك لم تندم على الصّمت قطّ وإن كان منك عيّا، وأنّك ندمت على الكلام مرارا وإن كان منك صوابا)، وهنا يبين لنا الكاتب أن مخاطبه لم يندم على السكوت أبداً، حتى ولو كان ذلك بسبب عجزه ، وقلة حيلته ، وأنه ندم على الكلام مراراً، حتى ولو كان في موضع صواب ، مصدراً فقرته بـ(إنَّ) مسندة إلى كاف الخطاب، للتأكيد على أن هذا قوله ، وهنا قد اعتمد الكاتب لإبراز هذه المعاني على المقابلة، حيث قابل بين أربعة معان تكشف عن قدرة الكاتب، وتمكنه من صياغته لمعانيه في ثوب من الجمال ناشئ عن الموسيقى والجرس الصوتي الذي أحدثته هذه المقابلة ، معضداً ذلك السجع الناتج من تكرار التنوين في(عياً، صواباً) وكلها من آليات الإقناع والتأثير لدى المتلقي ، وقد آثر الكاتب التعبير بالفعل(تندم) وهو الأسى على شيء قد فات ، منفياً بـ (لم) دون غيرها، لاختصاصها بقلب المضارع إلى زمن الماضي ، وهذا متناسب مع المعنى الدلالي للندم، ونلحظ دقة التعبير بكلمة(قط) في جانب عدم الندم على السكوت، و(مراراً) في جانب الندم على الكلام ، وبينهما طباق ، فالأولى تؤكد لنا القطعية بعدم الندم ، والثانية تؤكد تكراره وتتابعه ، وقد جاء التكرار الناشئ من صوت (الراء) في(مراراً) ليجسد لنا هذا المعنى وكثرة الندم على الكلام من خلال الصوت المكرر في الكلمة ، كما نرى أن الكاتب وظَّف تكرار الأبنية، ومنها صيغة الفعل الماضي خير توظيف من خلال تكرارها مسنده لتاء الفاعل في(زعمت ، قلت ، سميت)، حيث جاءت في بداية الجمل المتتالية، مما أحدث نوعاً من التناغم الذى يتناسب مع الغرض من الرسالة ، وبيان تنوع محاولات القائل بتفضيل الصمت في إثبات رأيه.

ثم يقول: (واحتجاجك في ذلك بقول كسرى أنو شروان، واعتصامك فيها بما سار من أقاويل الشّعراء والمتّسق من كلام الأدباء، وإفراطهم في مذمّة الكلام، وإطنابهم في محمدة السّكوت)

ويختم الجاحظ الفكرة التي عرض فيها رأى من مدح الصمت ، وذم الكلام ، بهذه الجمل ، والتي يعرض فيها حجة صاحب هذا الرأي ، ويأتي بالتعبير بـ(الاحتجاج والاعتصام)، ليدل على جدلية مخاطبه وافتعاله وبذل قصارى جهده في رد خصمه، فزيادة المبنى جاءت لتدل على زيادة المعنى فضلاً عن التعريف باسم الإشارة الذى للبعيد، ليدل على بُعد رأيه عن الصواب، وجاءت الاستعارة التبعية في قوله:(بما سار من أقاويل الشّعراء)، ليعبر لنا بصورة وافية عن حجج خصمه ، فكانت بما انتشر من أقوال الشعراء في ذم الكلام ، ومدح الصمت ، وإجراء الاستعارة فيها يكون كالتالي: شبه الكاتب الشيوع والانتشار بالسير، ثم استعار السير للشيوع ، واشتق من السير سار بمعنى شاع وانتشر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والاستعارة تعمل على تكثيف الدلالة ، وتسهم في تعددها، كما تثير في المتلقي الدهشة ، والطرافة من خلال المفارقة الدلالية التي تحدثها ، والتي تفاجئ المتلقي بمخالفتها للواقع المنطقي، فهي مبنية على المبالغة والتخييل ، ومن بلاغة الاستعارة(حسن التصوير وانتقاء الألفاظ، والإيجاز هو السحر الحلال وقطب البلاغة الذى تدور عليه)[1]، وقد تكاتف مع الاستعارة في أداء معنى الكثرة والتعدد صيغة الجمع(أقاويل الشّعراء، كلام الأدباء)، وجاءت الإضافة لتعظيم شأن المضاف إليه، وقد أفادت الإيجاز والاختصار، وتأتى المقابلة في(وإفراطهم في مذمّة الكلام، وإطنابهم في محمدة السّكوت)، لتحقق إمتاع المتلقي من خلال الموسيقى والجرس الصوتي المتناغم التي أحدثتها المقابلة حيث

(١) الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب العربية ، د/ محمود شيخون ص(١١٠) ، ط٢ ،١٩٨٤م ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة.

تساوى الجملتين ، وإقناعه من خلال بيان ما ذهب إليه هؤلاء الذين فضلوا السكوت وذموا الكلام من الإشادة بالسكوت ، وإيماناً من الجاحظ بأن اللفظ وما يحمله من معنى يعد لبنة من لبنات العمل الأدبي التي بها يتم البناء ، ويكون متكامل الأركان ، اختار (الافراط) في جانب الكلام، لما فيه من مجاوزة الحد، و(الإطناب) في جانب السكوت، لما في الاطناب من بسط الكلام، لتكثير الفائدة مع البلاغة ، ليكشف للقارئ بعدم حيادية هذه الأقوال.

ولأن للإيقاع الصوتي بعداً نفسياً على النفس البشرية ، فالعلاقة الانفعالية بين أصوات الكلمات ومعانيها تعد نوعاً من الموسيقى تجعل المتلقي في إقبال وانتباه كبيرين للنص بفعل هذه العلاقة التي قد لا يدرك كنهها ، ولكنها تفعل فيه فعلها ، فنرى دقة الكاتب اللغوية مكنته من المزاوجة بين الضمائر حسب حاجته لإقناع مخاطبه، فجاء بضمير الخطاب(الكاف) بحركة الفتح مكرراً في قوله:(بك ،عندك ، جعلك، كتابك، أنك، منك، احتجاجك، اعتصامك) وحرف(الكاف) صوت شديد مهموس مخرجه بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم[١]، وهو يجمع بين صفتي الشدة والهمس، فنراه بما فيه من الشدة يعكس لنا صيحة مدوية توقظ هذا الخصم على خطأه في تفضيل الصمت على الكلام ، بجانب محاولة الكاتب التقرب لخصمه لإقناعه ومشاركته نصه والتأثير فيه ، وجناس الحروف هو تكرار الأصوات المتماثلة ، وحرف بعينه في النص، ليظهر الثروة اللغوية لدى الكاتب وإضفاء عنصر الرنين على صوره مع التحرر من الملل والفتور الذى يسيطر على السامع [٢]، وهو يمثل جذور النغم وعذوبة اللحن وجمال التطريب، وكل ذلك له غاية التأثير في النفس، والرنين المنبعث من الحروف لا يجوز إهدار قيمته، لأنه جزء من البناء البياني للتركيب في النص.

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٧٧١).

(٢) الإبداع الفني في ديوان القمم ، ص(٥٤-٥٧) د/ صلاح الدين محمد ، ط١ ،١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م(بتصرف).

لذا نرى الكاتب في هذه الفقرة قد كرر (التاء)المفتوحة(إحدى وعشرون) مرة ، وقد أفادت الخطاب في الأفعال التي عبر بها الكاتب عن معانيه، والتاء حرف مهموس مرقق رخو[١]، فأنشأ من الترديد الصوتي له إيقاعاً هادئاً يعكس تودد الكاتب لمخاطبه ، وعرضه لرأى خصمه ومخاطبته له في هدوء دون تعصب وغلظة، وذلك من وسائل الإقناع ، فيقول:(قرأت، وصفت، شرحت، لخصت، أحمدت ، ذكرت، قلت ، زعمت، أتيت، أطنبت ، سميت ، .....) ونرى قد تردد معه حرف(الفاء)(إحدى عشرة) مرة ، وهو حرف مهموس ، يتفق بدلالته مع (السين) التي تكررت(ثلاث عشرة) مرة ، وحرف(الصاد) الذى تكرر(إحدى عشرة) مرة وهو حرف صفيري، ونرى أنه لا يمكن تأدية المعنى بهذه الصورة إلا من خلال هذه الأصوات(التاء، السين، الصاد، الفاء)، والتي حملت قيماً تستوقف المتلقي متفاعلاً مع دلالة النص المتدفق من النقد الهادئ والحوار اللين، تمهيداً لاستمالة المتلقي وإقناعه ، وهذا من براعة التأثير والاقناع ، وهذا ليس بغريب على الجاحظ فهو الأديب الحاذق الذى يقدر مقام الكلام ، وله مركزية لديه تجعله الأس الأول في الإقناع وتقرير الحجة ، وإيصالها لقلب السامع فهو القائل:(وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال،... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، فأنت البليغ التام)[٢].

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، ص(٥١) اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
(٢) البيان والتبيين(١/١٢٩).

المبحث الثاني

بلاغة الإقناع والإمتاع في دحض حجج من فضل الصمت

وبعد أن وضَّح لنا الجاحظ في المبحث الأول حجج من فضلَّ الصمت على الكلام، والبراهين التي استدل بها جاء ليدحض هذه الحجج وبدأها بتحليله لشخصية صاحب هذا الرأي، وهى من وسائل الإقناع والتأثير على المتلقي من دحض هذا الرأي ورده إذا كان صاحبه يتصف بهذه الصفات التي يعرضها لنا الجاحظ فيقول:(وأتيت- حفظك الله- على جميع ما ذكرت من ذلك، ووصفت ولخّصت، وشرحت وأطنبت فيها وفرطت بالفهم، وتصفّحتها بالعلم، وبحثت بالحزم، ووعيت بالعزم، فوجدتها كلام أمرئ قد أعجب برأيه وارتطم في هواه، وظنّ أنّه قد نسج فيها كلاما، وألّف ألفاظا ونسق له معاني على نحو مأخذه).

ولاشك أن الأسلوب هو الذى ينقل الأفكار التي تجيش في نفس المتكلم إلى المتلقي، وهو يتمثل في الألفاظ والمعاني، وجاء لنا الكاتب بعدد من الأساليب تكشف لنا عن شخصية هذا الخصم وكيف كان رأيه على غير صواب لتكون خطوة في إقناع المتلقي بفضل الكلام ، ومن هذه الأساليب :

الالتفات من المخاطب إلى المتكلم في(وأتيتَ، تصفّحتُها) وهو يدفع السآمة والملل عن القارئ كما فيه إثارة لفكر المتلقي ، وحرص الجاحظ على إقناعه بأنه انتقال من فهم إلى فهم ، ومن نظرة خاطئة حيث القول بتفضيل الصمت إلى نظرة متأنية صائبة حيث تفضيل الكاتب للكلام ، كما فيها من التفاعل والحوار بين المتكلم والمخاطب.

وجاء بالجملة الاعتراضية(حفظك الله) والتي أريد بها الدعاء ، فالكاتب بعد أن عرض رأى خصمه، جاء لينقد شخصيته والتي أسهمت بدورها في شد المخاطب من خلال العدول من أسلوب إلى آخر بطريقة مفاجئة وهذه من أساليب الإمتاع، وهى

خبريـة لفظـاً إنشـائية معنـى ، كمـا يشـوبها السـخرية والـتهكم مـن مخاطبـه ونقده، ونـراه عبر بالاسم الموصول(ما) في التعبير عن كل ما جاء به خصمه من استدلالات ، وما صدره من أحكام ليفيد كثرة هذه الأمور وسعتها.

وتظهر براعة الكاتب في اتباع أسلوب الايجاز من خلال استخدام اسم الإشارة (ذلك) الذى يشير إلى كل ما سبق من كلام خصمه ، كما أن فيه إشارة لبعدها عن الصواب.

وأسلوب الكناية الذي جاء به في قوله:(وفرطت بالفهم) أظهر دعواه مصحوبة بالـدليل والبرهـان، وهـى كنايـة عـن جهـل مخاطبـه مفضـل الصـمت وأن رأيـه جانـب الصواب، والافراط في الفهم هو: التعجل والاسراف فيه ومجاوزة الحدود الصحيحة ، وعدم التعقل ، والكناية هي لون من المجاز تحتاج إلى تأمل وتفكر، وهى أسلوب من أساليب الإقناع والإمتاع لأنه(عندما يفطن المخاطب إلى ما يريده المتكلم بعد معاناة وتفكر فإنه يحس بالمتعة والسعادة)[1].

ونرى المقابلة الخفية بين قوليه:(وفرطت بالفهم، وتصفّحتها بالعلم) مقابلة توحى بالتضاد بين الحالين ، حال من جهل ، وأسرف بفهمه ، وحال من نظر على علم وبرهان.

ويـأتي الجنـاس المضـارع في(بحثـت بـالحزم، ووعيـت بـالعزم) حيـث حرفي(الحاء)،(العين) اللذان يخرجان من الحلق ليدل على أن نظر الكاتب في رسالة خصمه قد كان يجمع بين الجد وتحرى الدقة، وأكد ذلك مجيء(الباء)التي للإلصاق لتدل على أن صفتي الحزم والعزم متلازمتان للكاتب مقترنتان ببحثه ملتصقتان به ، وهذه كناية عن الدقة والتمحيص، والجناس(عملية فنية ممتعة تزين الكلام وتجعل الذهن ينتقل

([1]) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د/ مجيد عبدالمجيد، ص(٢٣٠)، المؤسسة الجامعية ، ط١، ١٩٨٤م (بتصرف).

بين المعاني المختلفة ، وهو مستمتع بجرس موسيقى ينساب من الألفاظ المتشابهة المتجانسة)[١]، كما جاء السجع في العبارتين وأحدث إيقاعاً موسيقياً ساهم في إمتاع القارئ ، وميل قلبه لإقناعه، فاجتمع في العبارة التوازن والتناسب ، والازدواج والمساواة في الكلمات بل في عدد الحروف، والمقاطع الصوتية ، وكل هذا يكشف عن قدرة الكاتب ، ووعيه التام بألفاظ اللغة ، وحرصه على تحقق الإمتاع لقارئه بجانب القدرة على إقناعه.

وتظهر شخصية الكاتب في نقده لشخصية خصمه من خلال الاعتماد على المقدمات وتليها النتائج ، فهو رجل منطقي يحلل الشيء ويتعرف على حقيقته ، مقدماً أدلته المنطقية التي تقنع العقل والفكر ، فعرض المقدمات أولاً والتي تمثلت في بحثه في آراء خصمه بحثاً متقناً واعياً مرتباً حيث رتب أفعاله وفق ما اقتضته دقته في التثبت من كلام خصمه ، فبدأ بالتصفح الذى يقتضى النظر وقيده بالعلم ، ثم بالبحث والتنقيب وقيده بالجد ، ثم الفهم الواعي لكل ذلك ، ثم جاء بالنتائج في قوله:(فوجدتها كلام امرئ قد أعجب برأيه ، وارتطم في هواه، وظنّ أنّه قد نسج فيها كلاما، وألّف ألفاظا ونسق له معاني على نحو مأخذه) وتأتى (الفاء) لتظهر سرعة الكاتب في الوصول لهذه النتيجة بعد هذا البحث ، فهو كلام مبنى على الخطأ ومجانبة الصواب ، لذا عبر بالنكرة في (امرئ) لتفيد التقليل والافراد فلا أحد يوافقه الرأي فهو صوت ذاته فقط ؛ لذلك فهو شخص معجب بنفسه ، وقد تضافرت(قد) مع الفعل الماضي، لتؤكد على الإعجاب والغرور، وليس أدل على عدم الاعتداد بهذا المعجب برأيه من بناء الفعل للمجهول وعدم الاعتناء بفاعله ، بالإضافة إلى الجرس الموسيقى الذى جاء به الكاتب ملبياً حاجة المعنى والسياق فلما كان المقام مقام وصف لتخبط المادح للصمت اتبع الكاتب وسيلة من وسائل التأثير على المتلقي فصور المعنى بجرس اللفظ، فجاء بالفعل(ارتطم)

([١]) البلاغة والتحليل الأدبي ، د/ أحمد أبو حاقة ، ص(١٩٧) ط ١، دار العلم للملايين ، ١٩٨٨م.

وتدور مادته حول التخبط ، والارتباك والوحل في أمر وعدم الخروج منه[1]، وقد اجتمعت فيه (التاء) الدالة على الشدة ، وهو صوت مهموس انفجاري لثوى[2]، وقد أوحت شدته على شدة تخبط هذا الخصم في هواه، و(الطاء) حرف قوى من صفاته الشدة والجهر[3] والاستعلاء والإطباق، وهو حرف قوى شديد فمجرى الهواء ينغلق انغلاقا تاماً عند النطق به[4]، فنراه متفجراً من مخرجه، وتسمعه يحكى بقوة صوتاً مدوياً يرسم بجرسه مع سائر حروف الكلمة شدة اصطدام هذا الخصم بهواه ، وتمسكه برأيه الذى أعجب به وهو غير صحيح ، فنرى أن الكاتب قد اختار ألفاظه وما تشتمل عليها من أصوات بدقة فائقة تخدم معانيه ، فضلاً عن تقيده بالجار والمجرور(في هواه) وكذلك الفعل(ظن) وهو فعل يحمل معنى الشك، وجمع بين الألفاظ المتناسبة(نسج ، ألف ، نسق)،(ألفاظاً ، كلاماً، ومعانى) وقد أضفى هذا التناسب والائتلاف بين الألفاظ التماسك والاتحاد بين الجمل ، وبيان مجاهدة القائل بأفضلية الصمت في إثبات رأيه ، ويختم الكاتب فقرته بقوله:(على نحو مأخذه) وهى كنايه عن التحيز واستخدام المخاطب لأساليب ودلائل تخدم رأيه، ولم يلتزم فيها الضوابط العلمية في التفضيل ، والحيادية القائمة على إنصاف الحق.

وجاءت (الواو) واصلة بين الجمل ، ليزداد الكلام قوة ، ويستدعى عقل المخاطب فربطت (الواو) بين الجمل عضوياً وموضوعياً، فقد عطفت جملاً فعلية على أخرى ، وأدت دورها في بيان تتابع هذه الأفعال ، وحضورها أسهم في ترتيب وتنظيم وتماسك

---

(1) اللسان، مادة (رطم).

(2) دراسة الصوت اللغوي (٣٢٢، ٣٢٤) د/ أحمد مختار عمر، ط٤، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

(3) مناهج البحث في اللغة ، د/ تمام حسان، ص(١٠٢) دار الثقافة – الدار البيضاء ، ط٢، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

(٤) أسرار الحروف، أحمد زرقة، ص:(٩١)، دار الحصاد، دمشق، ط١ ،١٩٩٣م.

عناصر النص ، والوصل من الظواهر التركيبة المهمة التي تتميز بإمكانياتها الجمالية والأسلوبية، والتي تؤدى بدورها الإقناع والإمتاع للمتلقي.

ونلاحظ أنه قد تكرر في هذه الفقرة حرف(الميم) في أواخر الكلمات(الفهم ، العلم ، الحزم، العزم) وقد دلت دلالة واضحة عند الاستماع إليها على التوكيد والتشديد ومعانى القطع بالرأي والإصرار من جهة الكاتب على خطأ مفضل الصمت على الكلام ؛ لأن هذا الحكم لم يصدر إلا بعد الإصرار في البحث وحرف(الميم) يوحى بالجمع والضم ، ولم يجد الكاتب وسيلة تعبر عن احتواء رأى خصمه على كثير من التحيز وتجنب الصواب إلا حرف(الميم) الذى تتحقق فيه صفة الاستفال وانضمام الشفتين عند النطق بها تصوير حي لما يحمله هذا الرأي من الانغلاق ، واتباع الهوى.

المبحث الثالث

بلاغـة الإقناع والإمتاع فـي ذكـر أدلـة تفضيل الكـلام علـى الصمـت

بعد أن استحضر الجاحظ في مستهل نصه الدعوة التي سيعمد إلى نقضها ، ومؤداها أن الصمت أفضل من الكلام ، وقد قدمها بشكل موجز محافظاً على ترتيب الحجج التي جاء بها الخصم ، وعرض حججه التي تثبت دعواه، والتسميات التي أتى بها، واستمر الجاحظ في هذا الطرح إلى أن يعقب طرح خصمه بانتقاد يقدح به خصمه، ويمهد به الطريق لعرض قضيته حيث وصفه بشخص(قد أعجب برأيه وارتطم في هواه) وبهذا الانتقاد يقدم الجاحظ لطرح قضيته التي لا تقبل الرد والمبررة فيقول: (وإنّي سأوضّح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر، ومن الحقّ ما يقهر، بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوّتي، وملكته طاقتي، بما لا يستطيع أحد ردّه، ولا يمكنه إنكاره وجحده، ولا قوة إلّا بالله، وبه أستعين، وعليه أتوكّل وإليه أنيب).

وهنا قد بدأ الجاحظ كلامه بـ(إنَّ) المشددة ، والتي تفيد التأكيد، وأضاف إليها ياء المتكلم لمزيد من التخصيص، وقد كثف فيها التأكيد من خلال تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي(سأوضّح) بالإضافة إلى مزيد من التخصيص ، وتنبيه السامعين إلى المقدم مع تقوية الحكم وتقريره ، وصياغة الفعل على المضارع تفيد (تزجية ومزاولة في معناه)[1] ، للدلالة على تجدد التوضيح واستمراره من قبل الكاتب ، وعضد ذلك بـ(السين) وهى من المؤكدات الدالة على المستقبل القريب وجاء التعريف باسم الإشارة (ذلك) للدلالة على تعظيم الموضوع الذى يتحدث فيه منزلًا علو المنزلة والمكانة منزلة

([1]) دلائل الإعجاز ص(١٧٥).

بُعد المسافة ، وتأتى(الباء) التي للإلصاق، لبيان ملاصقة الصفة للموصوف، فحديثه ملصق بالبراهين والأدلة، وليس حديث هوى وذات، ونلاحظ براعة الكاتب ودقته في أداء معانيه، فجاء بعبارات متساوية ، وكلمات متوازنة ، فجاء الجناس اللاحق[١] بين (قاطع، ساطع) حيث اختلفت(القاف) وهى مخرجها من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، و(السين) وهى مخرجها من طرف اللسان مع ما بين الثنايا[٢]، والحرفان في الوسط ، وفى هذا تفوق كبير للإيقاع ؛لأنه يقدم نغمات مختلفة، مما حقق للمتلقي شيئاً من الراحة ، وقدم له أكثر من شيء يطربه ؛ ولاسيما أن اللفظين متقاربان في الدلالة ، وعضد هذا الجناس السجع المتوازي بين اللفظين تكرار حرف(العين) وهو من أنصع وأقوى حروف العربية تحاكى وضوح وقوة هذا البرهان ، ليعلو الإيقاع، والتناغم ، وهذا ما أكده صاحب الصبغ البديع في معرض حديثه عن بلاغة السجع حيث ذكر أنه (يؤثر في النفوس تأثير السحر ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ، لما يحدثه من النغمة المؤثرة ، والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن ، وتهش لها النفوس...، فيتمكن المعنى في الأذهان ويقر في الأفكار)[٣].

كما جاءت كل منهما صفة لتكشف وتفسر الموصوف (برهان ، بيان) فالبرهان قاطع ، والبيان ساطع، ومجيئهما على زنة اسم الفاعل أكدت على ثبوت ودوام تلك الصفة لموصوفها، بالإضافة إلى الوصل بينهما لتوسط الكمالين حيث التناسب بين الجملتين من حيث الخبرية في اللفظ والمعنى.

---

(١) الجناس اللاحق: هو ما اختلف فيه اللفظان المتشابهان في نوع حرف واحد منهما غَيْرِ مُتَقَارِبَيْنِ في النُّطْق ، البلاغة العربية (٢/ ٤٩٥).

(٢) المعجم الوسيط ، باب (القاف)(٧٠٩/٢) ، باب (السين)(٤١٠/١) .

(٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية، د/ أحمد موسى، ص(٤٩٧)، دار الكتاب العربي، ط١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م.

ثم يواصل الكاتب حديثه عن دوره في إثبات بطلان هذا القول القائل بأفضلية الصمت من خلال أدلته وبراهينه فيقول:(وأشرح فيه من الحجج ما يظهر، ومن الحقّ ما يقهر، بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوّتي، وملكته طاقتي، بما لا يستطيع أحد ردّه، ولا يمكنه إنكاره وجحده، ولا قوة إلّا بالله، وبه أستعين، وعليه أتوكّل وإليه أنيب) حيث تطالعنا صيغة المضارع(أشرح) والذى تضفى التجدد والحركة على الفعل، فتريك الحجج بعينك في ظل هذا التجدد ، ثم تأتى العبارات المتساوية والتناغم ليطربنا السجع بين(يظهر، يقهر)، حيث تكرار (الراء) والتي دلت بتكرارها على معاودة هذه الأفعال بجانب صياغتها بالمضارع، وقد تآزر الجناس اللاحق بين الفعلين مع السجع أيضاً ، حيث اختلاف(الظاء)،(القاف) في المخرج وهما في الوسط ، وبذلك جاء الجناس ملمحا أسلوبيا أدى المعنى بأوجز عبارة ، ومنح المتلقي آفاقا رحبة في تخيل دلالات العبارة ، وإمعان النظر في هذا اللفظ المكرر، وتردد حروفه والتقارب الصوتي بين اللفظين أفاد التوكيد ، والذى لا يتأتى لولا وجود هذا الجناس ، فكان موقعه جميلا ، وآثراً للسمع والفكر معاً من خلال إعادة نفس اللفظة ، وفي هذا يقول الإمام عبد القاهر:(قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها)[1].

وعبر الكاتب بـ(ما) الموصولة ليتخيل المتلقي معها ما يشاء أن يتخيله من قوة هذه البراهين في دحض كل الحجج أمامها، وبهذا حقق الكاتب عنصري الإمتاع ، والاقناع لمخاطبه بقوة حجته ، وسطوع برهانه، فجمع بين الصيغ المقنعة ، والأساليب الممتعة التي تطرب المتلقي.

ويأتي وسط ما هو عليه من قوة في الحجة ، ليظهر لنا تواضعه ، وهى من شيم العلماء فيقول:(بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوّتي، وملكته طاقتي) وهذه العبارة

(١) دلائل الإعجاز(٥٢٤).

كناية عن تواضعه ، وقد عضد الكناية عدد من الاستعارات المتتالية حيث شبه معرفته، وقوته، وطاقته بإنسان يأتي ، ويصل لهدفه ، ويملك ثم حذف المشبه به على سبيل الاستعارة التخيلية التي هي قرينة المكنية ، وهنا يمتع الكاتب قارئه، وذهب بخياله من خلال تجسيد تلك المعنويات في صورة المحسوسات تدب وتتحرك ، وتنبض بالحياة ، وكأن معرفة الكاتب وقوته وطاقته قد جاهدت في سبيل الوصول للبراهين التي ترد الرسالة القائلة بتفضيل الصمت على الكلام (وإذا استخدم الجاحظ لصور الخيال يأتي بها محسوسة طبيعية تثير في النفس ما تثيره الصور الواقعة، وخيال الجاحظ خيال واقعى يمده بأدق التفاصيل)[١]، وتوالت الأفعال الماضية التي تؤكد وقوع وتحقق تلك الأفعال، وترابطها من خلال الوصل بـ(الواو) ، ويظل نهر الأسلوب الإقناعي والإمتاعي لدى كاتبنا يتدفق ، فيفيض لنا بالازدواج وقد عانق السجع بين(وبلغته قوّتي، وملكته طاقتي) والازدواج[٢] فاعلية نسقية حيث الترابط النحوي والدلالي وتساوى العبارات والكلمات في عدد الحروف ، فضلاً عن تماثل الجمل في الفعلية ، وذلك لخلق حالة من الثقة والعزيمة في إظهار الحق ، ورد الباطل، ويقول العسكري في بلاغة الازدواج (لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج)[٣]، وعندما ندقق النظر في الأفعال التي جاء بها كاتبنا، ليعبر عن معانيه في الاجتهاد من أجل الوصول للحق، نلاحظ تدرجه في عرض أفعاله ، مما يعكس تأنيه وحكمته في الوصول إلى حقيقة الشيء من أجل الحكم عليه ، فبدأ بالإتيان وهى

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبدالحكيم بلبع. ص(٢٣٨- ٢٣٩)، مكتبة وهبه ، ط٣، مصر ، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

(٢) والازدواج: كل جملة فيها كلمتان مزدوجتان. يراجع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن الإصبع العدواني . ص:(٤٥٢) تحقيق د/ حفني محمد شرف ، الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.

(٣) الصناعتين للعسكري. ص:(٢٦٠) .

البداية، ثم بالبلوغ الذى هو الوصول ، ثم التملك الذى يعكس التمكن التام من حجته التي وصل إليها، فضلاً عن تماسك أفعاله وترابطها من خلال(واو) الوصل، ويأتي بالسجع المرصع متفاوت المقاطع[١] بين (برهان ، بيان) ، (بلغته ، ملكته) (لا يستطيع، لا يمكنه) ثم التقابل بين(قاطع، ساطع)،(ما يظهر، ما يقهر)، (قوتي ، طاقتي)، فنرى الجاحظ قد رصع كل فصل من فصول الكلام بما يقابله ويوازنه، فالوحدات الإيقاعية متعادلة صوتياً، وبالنظر نرى أن النقص الحاصل في المجموع العددي للمقاطع نتيجة لعلة في النص يهدف الجاحظ إلى تحقيق هدف من ورائها ، وهو جذب ذهن القارئ للفارق بين النطق والصمت وكذلك التوازي التركيبي النحوي المتماثل في هذه المقاطع قد اشترك في خلق إيقاع داخلي في النص ساعد على جذب انتباه الملتقى وجعله يشعر بالارتياح النفسي ، وليس أدل على براعة الكاتب ، وقدرته الفائقة على إقناع مخاطبه من تلك اللطائف.

ويبين الكاتب قوة حجته ، وأدلته التي لا يستطيع أحد أن يماري فيها ، أو ينكرها فيقول: (بما لا يستطيع أحد ردّه، ولا يمكنه إنكاره وجحده) فجاء بـ(لا) والتي هي من أوسع الحروف دلالة على النفي مكررة، حيث امتداد الصوت فيها ، والذى يعطيها انتشاراً من الناحية الصوتية يناسب امتداد نفى استطاعة أحد رد هذه الحجة(فامتداد الصوت وانطلاقه في هذا الحرف يشعر بتطاول زمن هذا النفي، وأن النفي به حرى أن يكون للتأبيد)[٢] ، بالإضافة إلى تكرارها الذى أفاد توكيد النفي ، والتنكير في(أحد) والذى أفاد العموم لوقوعها في سياق النفي بالإضافة إلى تكرار الأفعال المضارعة المسبوقة بالنفي، لتدل على استمرارية نفى الاستطاعة بالرد ، والإنكار والجحد ، وبهذه

(١) السجع المرصع: وهو أن تكون الألفاظ المتقابلة في السَّجْعَتَيْن متفقةً في أوزانها وفي أعْجَازِها، "أي: في الحرف الأخير من كلّ متقابلين فيها، ولا يحقق توافقاً عددياً في المجموع العددي للمقاطع، يراجع: البلاغة العربية(٢/ ٥٠٥، ٥٠٧).

(٢) قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى. ص:(٢٠٧) مكتبة وهبه، ط٢، ١٩٩٨م.

الصياغة القوية أقنع الكاتب مخاطبه بأدلته التي سوف يسوقها ، وتشوقه لمعرفتها، وتظهر هنا براعة الكاتب في مواجهة وإفحام مخاطبه من خلال استخدامه الحجاج بالتجهيل والمغالطة ، وهى حجاج تقوم على إفحام المخاطب، انطلاقاً من تعجيزه على أن يأتي بما ينفى تأكيده بالحجة ، ذلك أن المتكلم يؤسس حجته على قاعدة مؤداها : إذا لم تأت بما ينفى حجتي فهو الدليل على أنها صحيحة[١]، وهنا واجه خصمه مباشرة بهذه الحجة ، وأنه سوف يعجز عن رد الحجة بأفضلية الكلام ، وهذا دليل على صحتها.

ويختم لنا الكاتب فقرته بعبارات تكشف عن قوة إيمانه، وعقيدته الراسخة فيقول: (ولا قوة إلّا بالله، وبه أستعين، وعليه أتوكّل وإليه أنيب) وقد جاء في هذه الجمل متبعا أسلوب القصر، غير مقتصر على أحدهم ، ولكنه اقتفاه في جمله الأربع، ليرسم لقارئة صورة للمؤمن الصادق ، وتعلقه بخالقه في جلَّ أموره ، فزاوج بين طريقين من طرق القصر ، وهما النفي والاستثناء والتقديم، فقصر القوة على الله تعالى، فهي لا تكون إلا به سبحانه قصراً حقيقاً تحقيقياً ، وهو قصر صفة على موصوف ، وقد بدأ به الجاحظ لأن القصر بالنفي والاستثناء أقوى طرق القصر وأعلاها نبرة ، ويخاطب به من يجهل الأمر، وكأن الجاحظ أراد أن يثبت لمخاطبه أن قوته في رد هذه الرسالة القائلة بأفضلية الصمت مستمدة من الله سبحانه لا من شيء آخر، كما فيه تعظيم لهذه القوة ، ودعم ذلك النفي بـ(لا) دون غيرها من أدوات النفي ، ثم أتبع هذه الجملة بعدة جمل متتالية(وبه أستعين، وعليه أتوكّل وإليه أنيب) متبعاً فيها طريق آخر من طرق القصر وهو(التقديم)، فقصر فيها الاستعانة بأنها لا تكون إلا به سبحانه وتعالى ، والتوكل لا يكون إلا عليه ، ولا يكون الرجوع إلا إليه سبحانه وتعالى ، فقدم الجار والمجرور(به،

---

(١) عندما نتواصل نغيِّر، عبدالسلام عشير ، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ص:(١٦٦).

عليـه، إليـه)على الأفعـال، فأفـاد القصـر والتخصـيص ، وهـو قصـر صـفه علـى موصوف قصراً حقيقاً تحقيقياً، وقد وظَّف الجاحظ هنا وجهاً من وجوه علم المعاني لتكون أداته في إقناع مخاطبه، فعبر عن عمق إحساسه، وما يجب أن يكون عليه المرء عند تقصى الحقيقة، فجاء بصورة موجزة لها تأثيرها على مخاطبه ، وقد ساعده في ذلك ملكته ، ويقول ابن القيم مبيناً القيمة البلاغية للقصر بطريق التقديم ، وملكة العرب في التصرف به (فإنهم أقوى به دلالة على تمكنهم في الفصاحة ، وفى معانيه ثقة بصفاء أذهانهم ، وغرضهم فيه أن يكون اللفظ وجيزاً ، وله في النفوس حسن موقع ، وعذوبة مذاق)[1].

وبعد أن عرض الكاتب حجج خصمه ، أجمل الحديث عن أدلته وبراهينه التي تؤكد أفضلية الكلام في قوله:(سأوضّح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع)، ووصفها بالوضوح والقوة، لكي يؤهل المتلقي لقبولها جاء بتفصيل وبيان هذه الحجج ، بعد أن استعان بالله، مراعياً فيها الضرورة العلمية التي يقتضها التحاجج بين طرفين فأتى بحجج داحضة لقضية خصمه ، وأدلة تبرهن على صحة رأيه بأفضلية الكلام، فيقول:

(إنّي وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة منها: أنّك لا تؤدّي شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلّا بالكلام.

ومنها: أنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مأربك إلّا باللّسان، وهذان في العاجل والآجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة، وعند الحقائق مشتهرة، وفي التّدبير ظاهرة).

وقد استهل فقرته بـ(إنَّ) المشددة مضافة إلى ياء المتكلم ، لتفيد التأكيد بالإضافة إلى أنه قدَّم المسند إليه على الخبر الفعلي (وجدت) لمزيد من التقوية والتأكيد على هذا

([1]) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ، وعلم البيان، لابن القيم الجوزية، ص(٢٨) دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.

الإيجاد ، وتخصيص الكاتب به دون غيره ، وقد عمد إلى صيغة الماضي مصحوباً بضمير المتكلم عقب مجيئه بـ(ياء المتكلم) في بداية الجملة، وهذا لمزيد من توكيد تلك المعاني التي يطرحها ، وجاءت الإضافة لغرض التعظيم من شأن الكلام في(فضيلة الكلام، ومنقبة المنطق)، ومجيء الترادف بين(الكلام، المنطق) أكد هذا التعظيم ورغبة الكاتب القوية في الحفاظ على جرس الجمل ، وانسجام الألفاظ ، وتأكيد المعاني في ذهن قارئه كذلك المجاز العقلي في إسناد الفضيلة ، والمنقبة للكلام والمنطق، وما فيه من ثراء للمعنى وسعة للخيال، حيث يوصف بهذه الأوصاف المتكلم لا الكلام نفسه وجانس بين(باهرة ، ظاهرة)، حيث الجناس اللاحق لاختلاف (الباء، الظاء) في مخرجهما[١]، وقد تآزر معه السجع المتوازي[٢]، لاتفاق الكلمتين في الوزن مما زاد الجمل تلائماً ، واتساقاً، وبيان أن الكلام يجمع بين المتعة والبيان، وقد أكسبا صفة الثبوت والدوام من خلال صيغة اسم الفاعل التي جاءتا عليهما ، وقد زاد الكلام تعظيماً اختيار الكاتب لمادة (بهر)، لما تفيده هذه المادة من شدة الإعجاب والغلبة والظهور[٣] ، ويوضح الجاحظ أن هذه المزية للكلام تكون في صفات كثيرة ومعلومة فيأتي بالترادف بين(خلال، خصال) حيث تنوع اللفظ مع اتحاد المعنى بالإضافة إلى الجمع الذى ساهم في تأكيد الكلام وقوته ورسوخه في ذهن المتلقي ، ونوع الكاتب أيضاً في استخدام الوصف، حيث استخدم صيغة المبالغة (فعيل) في(كثيرة)، لتدل الكلمة بمبناها ومعناها على معنى الكثرة ، واستخدم الوصف باسم المفعول فى(معروفة)، ليدل على

---

(١) فالباء مخرجها من الشفتين. يراجع: اللسان (٢٠٤/١) و(الظاء) تخرج من طرف اللسان مع الثنايا العليا وهو من الحروف المجهورة . يراجع: اللسان (٤٣٦/٧).

(٢) السجع المتوازي :هو أن يكون الجزءان متوازنان متعادلان، لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه. يراجع: الصناعتين ص:(٢٦٢).

(٣) مقاييس اللغة. مادة (بهر).

ثبوت ودوام تلك الصفة للموصوف الذى هو الكلام ، وبجانب هذا الأسلوب الإقناعي يأتي الجاحظ بشيء من إمتاع القارئ من خلال النغم ، والإيقاع الصادر من اتحاد السجع مع الجناس في (خلال ، وخصال) والذى حقق الترابط والتلاحم بين أجزاء النص ، فالجاحظ قصده التأثير على مفضل الصمت وإقناعه بأفضلية الكلام بجانب إمتاعه ، وشده تجاه النص، وبما يتناسب والمضمون المعالج ، لأن السجع هو(الإيقاع بالأصوات والإيقاع بالمتلقي والزج به في نظام النص على أنه طرف من أطرافه)[١]، ثم يأتي لتفصيل هذه المزايا ، وتلك الخصال ليكون قد دعم جوانب قضيته بالحجج القوية، والبراهين الساطعة منها الأدلة العقلية والنقلية ، ولنبدأ بالعقلية:

الحجة الأولى: الكلام أداة الشكر

ويقول فيها:(منها: أنّك لا تؤدّي شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلّا بالكلام).

وهنا يبين لنا الحجة الأولى على مزايا الكلام، متبعاً أسلوب الحوار، والرسالة من بدايتها تنبض بالحوار الهادف الذى اتبعه الكاتب،لاستمالة قلب مخاطبه ، وإقناعه بحجته ، وأسلوب الحوار(محبب إلى النفس، يضفى على النص حيوية ، ويدفع الملل والشرود ، ويشد انتباه السامع ، ويجعل الإقبال على متابعة النص أشد)[٢] ، كما يتسم بأنه وسيلة من وسائل التوجيه والإقناع Kحيث يقوم على المخاطبة والمجاوبة ، ليستفيد السامع والقارئ منه، وفيه من التشويق ما لا يخفى ، وقد استهل الكاتب تلك الأدلة بـ(من) التي للتبعيض، ليدل على أنها كثيرة ، وهذه بعض منها ، فالكاتب يدلل لنا على أهمية الكلام بأنه من مظاهر شكر الله على نعمه ، فلا أحد يمكن أن يعبر عن شكره لله إلا عن طريق الكلام ، وقد صدَّر دليله بـ(أنَّ)، للتأكيد مضافاً إليها ضمير المخاطب، لجذب انتباه المخاطب، ومشاركته للكاتب بتدبر ما يقوله ، ثم يأتي بدليله

(١) تحاليل أسلوبية ، محمد الهادي الطرابلسي، ص(١٤٥) دار الجنوب ، تونس ١٩٩٢م.

(٢)الحديث النبوي مصطلحه، وكتبه، وبلاغته، محمد الصباغ ص:(٩٦) ط٣، ١٩٧٧م.

مستخدماً أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، لأنه أقوى طرق القصر(ولما كان النفي صريحًا في "الاستثناء" كان التأكيد أقوى)[١] .

وإنما خص "النفي والاستثناء" بما من شأنه أن يجهل وينكر؛ ولما كان المخاطب هنا يجهل مزايا الكلام، جاء له الكاتب بمزيد من التأكيد، ليدفع هذا الانكار ويقنعه بفضل الكلام ، واختيار(لا) التي للنفي زاد من هذا التأكيد ، فمن واقع الأداء الصوتي لها ندرك أنها من أوسع حروف النفي انتشاراً، والنفي بها فيه قوة وتأكيد وعموم بالإضافة إلى دخولها على المضارع، فهي تؤكد على استحالة حدوث الفعل لا في الحال ولا في الاستقبال ، ومن مظاهر التوافق بين تركيب الجمل تكرار(لا) النافية مع كل فعل، للتأكيد على أن أداء الشكر وإظهاره لا يكون إلا بالكلام ، وهذا القصر قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً ادعائياً، فهو يقرر أن شكر الله بالذكر والحمد والتسبيح ، والدعاء والصلاة أمر حقيقي، فلا يمكن لأحد أن يقلل من مزية الكلام ، إلا أن فيه شيئاً من المبالغة والادعاء حيث التنويه بشأن المقصور(الكلام) وعدم الاعتداد بغيره ، ولما كان شكر الله قد يأتي بصور أخرى مثل الصدقة وغيرها من أفعال الخير المختلفة كانت المبالغة في هذا القصر، وجاءت الإضافة في(شكر الله) لتعظيم المضاف ، وكل هذه من وسائل إقناع الكاتب لمخاطبه.

الحجة الثانية: الكلام وسيلة التعبير عن الحاجات

ثم شرع الكاتب في بيان المزية الثانية للكلام فقال:(ومنها: أنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مأربك إلّا باللّسان ، وهذان في العاجل والآجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرة، وفي التّدبير ظاهرة).

(١) المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني(٢/ ٨١) المكتبة الأزهرية.

وهنا يدلل على فضل الكلام، بأنه من أدوات التعبير عن حاجات الإنسان ، فالإنسان لا يستطيع عن يعبر عما يجيش في صدره ، ويدور في عقله، إلا من خلال اللسان، وقد صدرها أيضاً بـ(من) التي للتبعيض ليدل على أنها كثيرة ، وهذه بعض منها، وتكرار هذا الحرف على نحو متتالٍ يحدث نوعاً من الإيقاع والتناغم، الذى يؤثر في المتلقي، فيجعله أكثر إمتاعاً ، واقناعاً ، وقد جاءت العبارة على نسق سابقتها من حيث استخدام أسلوب القصر؛ لأن الجهة واحدة والغرض واحداً، فجاء الأسلوب دون تغيير، والقصر هنا من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً ادعائياً ، فالكلام هو أسرع وسيلة وأقواها، للتعبير عما يضمره الإنسان من خلال آلته التي هي اللسان، ولكن هناك طرق أخرى للتعبير عن تلك الحاجات مثل الكتابة ، والإشارة ، العين ، الهمس ، وقد زواج الكاتب بين البيان والمعاني، حيث جاء المقصور عليه هنا(اللسان) فأطلق الكاتب اللسان وأراد الكلام فعبر بالآلة التي يحصل بها التعبير عن طريق المجاز المرسل لعلاقة الآلية ، وهنا قد أمتع الكاتب مخاطبه بضرب من المجاز عدل فيه من التصريح إلى التلميح ، وهى من الأسس التي يستند إليها (الجاحظ)، وجعلها من أسس الإقناع في الحوار فيقول:(ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الافصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر)[1]، ويأتي الترادف واستخدام الجمع في(العبارة ، الإبانة)،(حاجاتك ، مآربك)، ليعلو به التأكيد ، ويزيد المعنى وضوحاً وقوة ، كما يدل على الكثرة والتعدد، ليدرك المتلقي قيمة الكلام والفوائد التي تعود من خلاله، وقد استخدم الكاتب(الواو) العاطفة، لترتيب حججه ووصلها ببعضها ، بالإضافة إلى ربطها النسقي بين الحجج ، فالحجة الثانية(أنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مأربك إلّا باللّسان) بطبيعة الحال أقوى من الأولى بالنسبة للجاحظ تبعاً للترتيب الذى أتى به ؛ لأن وجوب شكر الله مرتبط بعقيدة الفرد لذاته إن شاء

(١) البيان والتبيين (١/ ٩٢).

شكر، وإن لم يرد فهذا نقص في إيمانه يحاسبه عليه الله ﷻ أما التعبير عن الحاجات اليومية فأنت مجبر بأن تعبر عنها بالكلام.

ويواصل الكاتب حديثه فيقول:(وهذان في العاجل والآجل مع أشياء كثيرة، لو ينحوها الإنسان، لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة، وعند الحقائق مشتهرة، وفي التّدبير ظاهرة) فيأتي تعريف المسند إليه باسم الإشارة، ليميزه أكمل تمييز، وهو يشير إلى مزية الكلام في التعبير عن الحاجات، ومعلومٌ(أنّ من طبيعة دلالة اسم الإشارة تحديد المشار إليه تحديداً ظاهراً متميّزاً عن غيره)[١]، ويأتي الطباق والآجل) ليظهر المعنى ويبيَّن للمتلقي فضل الكلام، ومزيته في التعبير في الحاضر والمستقبل، بل في كل زمان من خلال الجمع بين المتضادين، والطباق له أهمية كبيرة تبعث المخاطب على اليقظة والنشاط، وتدفع عنه الملل ، كما فيها استدعاء لقلبه ، واستمالة لسمعه وبصره، ورصع به الجاحظ رسالته، ليقنع مخاطبه بفكرته، وهى أن الكلام أفضل من الصمت، وقد عانق الطباق لون بديعي آخر الجناس المضارع المزدوج[٢] بين(العاجل والآجل)،لاختلاف حرفي العين والهمزة في المخرج، ومجاورة لفظي الجناس كلا منهما الآخر، ، وقد علا بهذا التعانق للونى البديع الإيقاع الصوتي الناتج عن تكرار الحروف وترديدها وتصاعد النغمات المتتالية التي تجذب الآذان ، وتهز الوجدان فتتبه لها الذهن ، وزادت المعنى قوة ورسوخاً في ذهن المتلقي ، ثم يأتي الكاتب بأسلوب الشرط مستخدما(لو) التي للشرط في الماضي، مع القطع بانتفاء الشرط، فيلزم انتفاء الجزاء[٣]، وقد دخلت هنا على المضارع (ينحوها) لتنزيله منزلة

---

(١) البلاغة العربية (١ / ٤٢٠).

(٢) الجناس المزدوج : إذا ولي أحد المتجانسين الآخر سمي مزدوجا ومكررا ومرددا. يراجع: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (٤/ ٦٤٦).

(٣) وقيل هي لامتناع الشيء لامتناع غيره، الإيضاح في علوم البلاغة (٢/ ١٢٥-١٢٦).

الماضي في تحقق الوقوع ، فيؤكد الكاتب لمخاطبه أنه لو اتبع الإنسان هذه الأمور، وتعرض لها لوجدها في العقل ، والواقع فلا سبيل لإنكارها ، وأسلوب الشرط(له خاصية ربط الكلام ، ولم أطرافه، مما يجعل الكلام معه كأنه جملة واحدة)[1]، وقد جاء بجواب الشرط(لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة)، مؤكداً الجواب باللام، ليؤكد على أنه من بحث في مزايا الكلام سوف يجدها، دون شك، فيما يتوصل اليه العقل المفكر، وما جاء به النقل، وقد تكاتفت الكناية مع الشرط كوسيلة إقناع للمخاطب بأن مزايا الكلام مثبتة بكل الأدلة حيث جاء(في المعقول موجودة) كناية عن الأدلة العقلية، وقوله:(وفي المحصول معلومة) كناية عن الأدلة النقلية، كما جاء السجع بين الجملتين في غاية الحسن حيث تساوت قرائنه من ناحية ، واتفقت في الوزن من ناحية أخرى ، وبرز صوت بعينه في نهاية كل فاصلة وتكراره مما أحدث إيقاعاً متكرراً في ذهن المتلقي ، وولد الشعور بالمتعة الإيقاعية لديه، وقد جاءت(موجودة، معلومة) على صيغة اسم المفعول، لتدل على ثبوت وجودها والعلم بها في العقل والنقل، ويسترسل الكاتب في ذكر جواب الشرط فيقول(وعند الحقائق مشتهرة، وفي التّدبير ظاهرة) وعطف بين الجمل بالواو، لما بينها من تناسب في الخبرية ، واختار الكاتب ظرف المكان(عند)، لبيان تمكن الكلام وفضله في إقرار الحقائق ، وكأن الحقائق هي الميدان الفسيح، الذى تظهر فيه فضيلة الكلام ، وتتمكن فيه تمكن القائم بمكان إقامته، وجاء بالجمع لبيان كثرة تلك الحقائق التي للكلام فيها مزية ، وجاء بصيغة (مشتهرة)، لتدل الزيادة في المبنى على الزيادة في المعنى، حيث يقول ابن جنى(كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى)[2]، وهذا من باب التأكيد على ذيوع الكلام وبروزه في الحقائق، وكذلك في التدبير ظهورها واضح ، وجاء السجع المطرف

---

(1) أراك عصى الدمع لأبى فراس الحمداني دراسة بلاغية نقدية ، د/ صلاح حبيب سليمان . ص(٢٣٤٩) مجلة اللغة العربية بأسيوط ، العدد ٣١، الجزء الرابع.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني. ص(٨٧).

بين(مشتهرة، ظاهرة)، ليزيد المعنى وضوحاً ورسوخاً ، وجاء كألحان الموسيقى فيها الجمال والإمتاع ، وأتى عندما تطلبه المقام ، فكان رائعاً مقبولاً ألقى بأثره على المخاطب وأمتعه من خلال الدلالة التي أفرزتها تكرار الفواصل، واتفاقها في الروى واختلافها في الوزن.

ونلاحظ تكرار حرف الجر(في) المفيد للظرفية والوعاء، ليفيد تمكن الكلام ووجود فضله في العقل والواقع وعند تدبير الأمور، وتكرارها في كل موضع.

الحجة الثالثة: الكلام يميز الانسان عن الحيوانات والجمادات

وبعد أن بيَّن الكاتب أن الكلام وسيلة للشكر والتعبير عن الحاجات جاء ليدلل على أن الكلام يميز البشر عن غيرهم من المخلوقات فقال:(ولم أجد للصّمت فضلاً على الكلام ممّا يحتمله القياس؛ لأنّك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام به، ولو كان الصّمت أفضل والسّكوت أمثل، لما عرف للآدميّين فضل على غيرهم، ولا فرق بينهم وبين شيء من أنواع الحيوان وأخياف الخلق في أصناف جواهرها واختلاف طبائعها، وافتراق حالاتها وأجناس أبدانها في أعيانها وألوانها، بل لم يمكن أن يميّز بينهم وبين الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة، وكان كلّ قائم وقاعد، ومتحرّك وساكن، ومنصوب وثابت، في شرع سواء ومنزلة واحدة....)

وفي هذه الحجة ينفى الكاتب وجود فضل للصمت على الكلام عند المقارنة والتشبيه، والدليل على ذلك أننا لا نستطيع أن نعبر عن فضل الصمت إلا بالكلام ، ولا يمكن العكس، وهو وصف الكلام بالصمت ، والكلام يميز الآدميين عن غيرهم من المخلوقات الأخرى فبالكلام ميَّز الله الإنسان ، وقد جاء الكاتب بعدد من الأساليب التي كان لها دور مهم في إمتاع المتلقي وإقناعه، حيث استهل حجته بأسلوب النفي(لم أجد)، وقد وفِّق في اختيار(لم) دون غيرها من أدوات النفي، حيث تدخل على المضارع

فتقلبـه مـن الحـال والاسـتقبال إلـى الماضـي ، ولكـن يتصـور فيـه معنـى الاسـتمرارية والتجدد[١]، فعدم وجود فضيلة للصمت، لم يحدث فجأة ، وإنما جاء تدريجياً بالبحث والتنقيب، حتى وصل الكاتب إلى الحكم النهائي على الصمت فجئ بـ(لم) لنفى أن إيجاد فضيلة للصمت واقع ومحقق، وعضد ذلك تقديم الجار والمجرور(للصمت)، لتخصيص الصمت بنفي الفضيلة عنه دون غيره ، وجاء المسند(فضلاً) نكرة، لإفادة التقليل، ليزداد المعنى وضوحاً ، فالصمت لا يوجد له فضل، حتى ولو قليل ، ثم يذكر الدليل على ذلك في قوله:(لأنّك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام به)، وقد صدر دليله بـ(لأنَّ) وهى من أهم ألفاظ التعليل ليربط بين حجة وحجة أخرى وفيها تكثيف للتأكيد من خلال اجتماع(اللام التي للتعليل ، أنَّ)، وجاءت مسندة لضمير الخطاب، لتؤكد أن هذا الدليل محقق لدى خصمه عند ذكره فضيلة الصمت ، كما فيه لفت لانتباه المخاطب، ومشاركته في الحوار، لتحقق الإقناع ، وقد فصل بين الجملتين، لأن الجملة الثانية كانت بمثابة جواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ، والسر في الفصل شبه كمال الاتصال، وتكمن بلاغة الفصل لهذا السر في(أنه لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه أو لإغنائه أن يسأل ، أو لئلا يسمع منه شيء ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو للقصد على تكثير المعنى بتقليل اللفظ ، وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو غير ذلك مما ينخرط في هذا السلك)[٢]،

وجاءت المقابلة فأضفت على الكلام رونقاً ، وزادت المعنى وضوحاً، فهي لون عذب من الموسيقى أدى إلى لفت الانتباه، وشحذ الفكر، والإقناع بالمعنى ، والذى جاء

---

(١) بحث بلاغي بعنوان حروف المعاني وبلاغة النص، د/ صلاح الدين غراب، مؤتمر كلية اللغة العربية بالزقازيق ٢٠٠٩م (٥٨) بتصرف.

(٢) مفتاح العلوم ،لأبى يعقوب يوسف السكاكي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط٢، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م. ص (٢٥٢).

من وجود المقابلة في الألفاظ والمعاني[١]. وجاء أسلوب الشرط، ليؤكد على أنه لولا الكلام ما تميز الآدميين عن غيرهم ، وقد استخدم (لو) وهى حرف امتناع لامتناع، ليؤكد الكاتب على قوة حجته ، فكأنه يمتنع تمييز الآدميين عن غيرهم في حالة امتناع الكلام ، وقد ولد انسجاماً دلالياً وإيقاعياً بين الشرط والجواب ، وحمل في طياته أبعاداً إيحائية تنسجم وموقف الكاتب من الكلام، ودوره في تكريم الآدميين، كما أنه وجد فيه متنفساً في إيضاح فكرته ومشاعره بأسلوب يمنح القدرة على التصرف بطريقة نقل المعنى الذى يرمى إليه منتقلاً من(الإخبار الفردي)التركيب ذو الحدث الواحد إلى الإخبار الثنائي، وهو ربط حدثين في تركيب واحد بعلاقة منطقية وهو الربط والتعليق الشرطي[٢]، وجاء الترادف ، والتعبير بأفعل التفضيل في(أفضل ، أمثل)، ليسهم في تأكيد المعنى والدلالة على بلوغ الدرجة القصوى، التي خلعها الكاتب على الصمت ، وتمثلت في تلك الأوصاف.

ثم يأتي بالجواب(لما عرف للآدميّين فضل على غيرهم) مصدراً بالنفي(ما) لأنها آكد في النفي من غيرها ، وتأتى في الجمل ذات الدلالة القوية ، والفعل المبنى للمجهول يفيد العموم والشمول ، ووقوعه في سياق النفي يشمل ويعم نفى أي فضل للآدميين بدون الكلام ، وجاء لفظ (فضل) نكرة للتقليل، ليؤكد هذا المعنى ولتؤدي دورها الحيوي في إبراز الموقف وانعدام أي فضل للآدميين بدون الكلام ، ومن الدلائل على حسن استعمال النكرة إذا تطلبها المقام أنه(قد يختار المتكلم النكرة قاصداً بالتنكير التقليل، وتدُلُّ القرائن على قصد التقليل، وإذا دلَّت القرائن عليه حَسُنَ في الكلام حذف الوصف الدالّ على القلّة، والاكتفاء بدلالة التنكير، مع دلالة قرينة الحال أو قرينة

---

(١) قراءة جديدة في(نقد الشعر لقدامة بن جعفر) ، د/ عبدالحليم محمد شادى. ص(٦١).

(٢) أساليب الاستفهام في شعر الجواهري دراسة بلاغية ونحوية وإيقاعية، ص(٨٤) رسالة ماجستير ، جامعة البصرة ، كلية التربية ٢٠١٠م.

المقال)[١]، ونلاحظ أن الكاتب قد نهج نهجه الفلسفي في دفاعه عن قضيته من خلال استناده لحجة الاستنباط ، وهذه الحجة تمثل البرهان المنطقي الذى يسمى القياس ، وهو يقوم على الانطلاق من مقدمة كبرى تليها مقدمة صغرى ثم الاستنتاج[٢]، وقد تمثلت المقدمة الكبرى في أن الإنسان كائن يتكلم ، ثم جاءت بعدها المقدمة الصغرى(أنّك تصف الصمت بالكلام)، ثم كانت النتيجة أن(الكلام أفضل من الصمت)، وبذلك برع الكاتب في توفر عنصر الإقناع لمخاطبه ، والتأثير فيه من خلال إعمال عقله، ودفعه ليصل إلى النتائج بنفسه ، وتدرجها من العام إلى الخاص، فيكون أكثر اقتناعاً، ومن المعلوم أن الجاحظ (ليس بالرجل فسيح الخيال، إنما هو رجل الاعتزال أي رجل العقل والجد يطلب الحقيقة بكل قواه)[٣].

وعطف قوله:(ولا فرق بينهم وبين شيء من أنواع الحيوان، وأخياف الخلق في أصناف جواهرها واختلاف طبائعها، وافتراق حالاتها وأجناس أبدانها في أعيانها وألوانها) على جواب الشرط، ليؤكد أن الكلام هو الذى يميز الإنسان عن سائر المخلوقات ، ولولا الكلام لصار الإنسان كغيره من المخلوقات ، وتساوى معهم رغم اختلاف طبائعهم وأعيانهم، فجاء بـ(لا) لكونها تأتى لنفى الجنس، وقد دخلت على النكرة، لتفيد العموم والشمول ، فالنفي شامل أي فرق للآدميين عن غيرهم ، وقد استخدم الكاتب جواهرها بمعنى أجسامها ، وجوهر الشيء : حقيقته وذاته ، ويختص بالأحجار الكريمة[٤]، ويستعمل في الذهب أصلاً وفى غيره مجازاً ، وعين الشيء نفسه ، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأراد الكل، والمجاز من أساليب الإقناع،

---

(١) البلاغة العربية (١/ ٤٠٣).

(٢) مدخل إلى الحجاج ، أفلاطون وأرسطو ، وشايم ، وبيرلمان ، د/ محمد الوالي، ص:(٣) مجلة عالم الفكر، العدد ٢، مجلد ٤٠ ، أكتوبر – ديسمبر ٢٠١١م .

(٣) الجاحظ ، حنا الفاخوري ، ص(٣٩) دار المعارف ١٩٥٦م ، بتصرف.

(٤) اللسان، مادة(تبر).

لما فيها من إعمال الفكر، كما أنها من عناصر الإمتاع و(المجازُ حركاتٌ ذهنيّة تَصِلُ بين المعاني، وتعقِدُ بينها روابطَ وعلاقاتٍ فكريّةً تسمح للمعبّر الذكِيّ اللّمّاح بأن يستخدم العبارة الّتي تدلُّ في اصطلاح التخاطب على معنىً من المعاني ليُدلَّ بها على معنىً آخر، يمكن أن يفهمه المتلَقِّي بالقرينة اللفظيّة أو الحاليّة، أو الفكريّة البحتة)[١].

ويحاول الكاتب طرد الملل والسآمة عن القارئ من خلال الترادف بين(أنواع ، أخياف ، أصناف ، أجناس ، ألوانها) ، والأخياف(الضروب المختلفة في الأخلاق والأشكال، والأخياف من الناس: الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى، يقال: الناس أخياف أي لا يستوون)[٢]، فكل هذه الألفاظ تدور حول معنى واحداً، وجاءت بصيغة الجمع، لتعبر عن مدى الكثرة ، والتعدد المشتملة عليها تلك الضروب والفصائل، وجاءت الإضافة في(أنواع الحيوان ، وأخياف الخلق)، للإيجاز والاختصار ، وتعذر الإحاطة بهذه الأنواع، والأشكال المختلفة من المخلوقات ، وقد ذكر الكاتب لفظ الحيوان مرة منفرداً، ومرة داخل في لفظ (الخلق) وهذا من قبيل الإطناب بذكر العام بعد الخاص، وذلك للعناية بشأن الخاص(الحيوان)، لأنه أقرب شيء يمكن المقارنة بينه وبين الإنسان عند انعدام النطق، وجاء الكاتب بالترادف بين(اختلاف، افتراق) وبين (جواهرها ، أبدانها، أعيانها)، ليؤكد المعنى ويرسخه في ذهن المتلقي، ويحقق عنصر الإقناع في رسالته، ولجوء المبدع للترادف في النص(غايته الحفاظ على جرس الجمل، وانسجام الألفاظ، وتقرير المعاني، وتأكيدها في ذهن القراء)[٣]، من أجل الوصول بالنص إلى الوظيفة الإقناعية، وهى قصد المتحدث إلى إحداث تغيير في الموقف

---

(١) البلاغة العربية (٢/ ٢٢٥).

(٢) اللسان، مادة (خيف).

(٣) بحث بعنوان أسلوب الجاحظ ، د/ سمير روحي الفيصل، ص:(١٠١) مجلة التراث العربي ، عدد(٦١)، ١٩٩٥م ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا .

الفكري والعاطفي عند المتلقي[١]، وقد عانق الترادف السجع المطرف من تكرار الألف الممدودة ، ولم يكتف الكاتب بالمحافظة على حرف واحد بل عمد إلى مزيد من الترقي، وتصعيد النغمة، فحافظ على الالتزام بحرفين(الهاء، الألف)، فتوالت النغمات ، وأكدت كل سجعة سابقتها، فجمعت العبارة بين التأكيد الذى أحدثه الترادف ، والموسيقى الخلابة التي أخذت العقول والقلوب ، فحقق عنصر الإمتاع للمتلقي، ودفع عنه الملل ، بالإضافة إلى التناسب، وتكرار صيغة الجمع في(أبدان، أعيان، أجناس ألوان) أحدث تناسباً في الوزن ومزيداً من التلاحم الموسيقى، وجاءت (الواو) بمثابة الخيط الواصل، والرباط الجامع بين تلك الجمل، للتوسط بين الكمالين، حيث اتفقت الجمل في الخبرية لفظاً ومعنى.

وجاء الكاتب بـ(بل)، ليربط بين حجتين الثانية أقوى من الأولى فيقول:(بل لم يمكن أن يميّز بينهم وبين الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة)، فالأصنام أعدم حركة من الحيوان وأخياف الخلق ، وبذلك لعبت(بل) دوراً مهماً، وبارزاً في عرض الحجتين، وتغليب حجة الصمت والحركة على حجة الصمت والسكون ، وكلاهما يؤديان إلى نتيجة واحدة ، وهى أن الصامت، كالجماد أو الحيوان، وقد جاء التناسب في جمع الكاتب بين(الأصنام ، الأوثان) فالصنم هو ما ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس، وقيل: هو ما كان له جسم أو صورة، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن[٢]، ليؤكد على أنه لا يمكن الفرق بين هذه الأشياء، التي لا روح فيها، وبين الإنسان، إذا لم يوجد الكلام.

---

(١) البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي هنريش بليت ، ص:(١٠٢) ترجمة د . محمد العمري، أفريقيا الشرق للطباعة ، بيروت لبنان ، الدار البيضاء.

(٢) اللسان، مادة(صنم).

ولحرص الكاتب على إقناع مخاطبه ، وإمتاعه أتي بالطباق والجمع بين الأضداد، لإظهار الفرق والبون الشاسع بين تلك الأحوال التي ذكرها الكاتب في قوله:(وكان كلّ قائم وقاعد، ومتحرّك وساكن، ومنصوب وثابت، في شرع سواء ومنزلة واحدة، وقسمة مشاكلة؛ إذ كانوا في معنى الصّمت بالجثّة واحدا، وفي معنى الكلام بالمنطق متباينا)، فأكد الكاتب بذلك على أفضلية الكلام، ولولاه لتساوت الأضداد ، وأصبحت المتضادات شيئاً واحداً، والقائم يساوى القاعد، والمتحرك يساوى الساكن ، والتضاد خلق إيقاعاً سريعاً، وضربات موسيقية متلاحقة، تتناسب وتلاحق الكلمات، وتدفقها فيما يشبه السيل يتناسب ورأى الكاتب ومحاولته لإقناع مخاطبه بأفضلية الكلام، وقدم الكاتب(كل)لإفادة عموم الحكم على كل هذه الأشياء، ولاشك أن الجمع بين الأضداد يعطى العبارات جمالاً أسلوبياً، بالإضافة إلى تأكيد المعنى وتقويته، بسبب التقابل اللفظي في كلام واحد، ومواجهة كل نقيض بنقيضه[١]، وقد جاءت(قائم ، قاعد، ساكن، ثابت) على صيغة اسم الفاعل ، فأفادت مزيد من التقرير وتأكيد المعنى وحصوله في الذهن، وقد أدت دورها وما فيها من مد توسطها، كما تقوم(بزيادة طاقة الصورة ، وقدرتها على خطاب متخيلة المتلقي ، وحفزها لتمثل طبيعة المشهد المعروض)[٢] وقد جاءت منونة ، واسم الفاعل المنون له دور في الدلالة على التأكيد في الزمن الحاضر والمستقبل[٣] .

---

(١) مباحث في وجوه تحسين الكلام ، ا.د رفعت السوداني ص(٣٧) مطبعة الأمانة ، ط١، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

(٢) في صحبة النص ، د/ طارق شلبي، ص(٩٨، ٩٩) دار البرق ، القاهرة.

(٣) النحو والدلالة فى بنية النص الشعرى د/ محمد السيد سعيد، ص(١٣١) دار الحكمة القاهرة ط١ ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

ولا يخفى ما أفاده الترادف في قوله:(في شرع سواء ، ومنزلة واحدة) من التأكيد على المعنى المراد وأنه بدون الكلام، قد صارت الأضداد شيئاً واحداً، وفى هذه الفكرة نرى أن الكاتب قد اتبع أسلوب المذهب الكلامي[١]، وهو من عناصر الإقناع من خلال ذكر الحجج والبراهين العقلية التي تدحض فكرة الخصم وتمثلت هذه الحجج في أن الكلام يصف الصمت ، والحجة الثانية أنه بالكلام يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات والجمادات، لذا فالفضل للكلام لا للصمت ، فكل هذه المقدمات التي ذكرها الكاتب، وهى مسلم بها عند المخاطب استلزمت النتيجة ، وهى إثبات الفضل للكلام ، ولأن الجاحظ رجل العقل والجدل يطلب الحقيقة بكل قواه ، فلم يقتصر على إقناع المخاطب بها فحسب ، وإنما هدف إلى إقراره بهذه الحقيقة، وهذه هي أقصي درجات الإقناع.

وبعد أن ذكر الكاتب براهينه العقلية، ليقنع مخاطبه بأفضلية الكلام، جاء ليستشهد بالأدلة النقلية، ويقدم لها قائلاً:(والذي ذكر من تفضيل الكلام ما ينطق به القرآن، وجاءت فيه الرّوايات عن الثّقات، في الأحاديث المنقولات، والأقاصيص المرويّات، والسّمر والحكايات، وما تكلّمت به الخطباء ونطقت فيه البلغاء أكثر من أن يبلغ آخرها، ويدرك أوّلها، ولكن قد ذكرت من ذلك على قدر الكفاية، ومن الله التوفيق والهداية)[٢]، يتعرض الكاتب في الفكرة السابقة لمزية أخرى من مزايا الكلام جمع فيها ضروب القول وفنونه، فبدأ بالمعجزة الخالدة التي جاء بها النبي(ﷺ) وعرف المسند إليه بالموصولية،

(١) والمذهب الكلامي: هو أن يورد المتكلم على صحَّة دعواه حُجَّة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب ، وسمى هذا النوع (بالمذهب الكلامي) لأنه جاء على طريقة (علم الكلام والتوحيد) وهو عبارة عن اثبات (أصول الدين) بالبراهين العقلية القاطعة. يراجع: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ص: (٣٠٥) وما بعدها.

(٢) السمر، هو حديث الليل، لسان العرب مادة (سمر).

لعدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة[١]، فالمخاطب ينكر فضيلة الكلام ، ويجهل المصادر التي أقرت بفضله فحاول الكاتب أن يقنعه من خلال تعريفه بالموصولية ، ليتشوق إلى معرفة الخبر، ويتمكن في ذهنه كل تمكن، والتعبير بالمبنى للمجهول(ذكر) أفاد عموم وشمول وكثرة فضيلة الكلام في تلك المصادر و(من) جاءت للتبعيض، ليدلل الكاتب لمخاطبه على كثرة مزايا الكلام وأن الذى ذكر في هذه المصادر ما هو إلا بعضاً منها، وجاء بالإضافة في (تفضيل الكلام)، ليؤكد على تعظيمه، ثم جاء الكاتب وخلع صفة الأحياء على المكتوبات، فحقق إمتاع مخاطبه فقال:(ما ينطق به القرآن، وجاءت فيه الرّوايات عن الثّقات)، حيث شبه القرآن الكريم بالإنسان الذى ينطق ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النطق، وكذلك في قوله:(جاءت فيه الرّوايات عن الثّقات) شبه وضوح الحجة على فضل الكلام في الرواية عن الثقات بالكائن الحى الذى يتحرك ويجئ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو المجيء، وكأن هذه الحجة مرئية مشاهدة، فنُقلت من عنصر السماع إلى عنصر المشاهدة والمعاينة ، وهذا أقوى في التأثير والإقناع ، وكل ذلك على سبيل الاستعارة التخيلية التي هي قرينة المكنية ، وقد دللت هذه الاستعارة على قوة حجة القرآن الكريم وظهورها ، ووضوحها لدرجة تجعله ينطق بذاته ، وقد خلع عليه روح الحياة ، فجعل القرآن ينطق وينبض بالحركة ، ويقول الإمام عبد القاهر في فضل ذلك اللون البياني(فإنك لترى بها الجمادَ حيّاً ناطقاً، والأعجمَ فصيحاً، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً)[٢]، وتظهر براعة الكاتب في التعبير بصيغة المضارع (ينطق) في جانب القرآن للدلالة على استمرار حجة القرآن ودوامها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وأنها ماثلة أمام العيون ، وقد عبر بالماضي(نطق) في جانب

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (١/ ٧٩).

(٢) أسرار البلاغة ص:(٤٣).

كـلام البلغـاء والخطبـاء، ليظهـر الفـارق الكبيـر والبـون الواسـع بـين اسـتمرارية القـرآن الكريم، ورفعتـه وبلاغتـه ، وبـين كـلام البشـر الـذى يعتريـه الفنـاء والانتهـاء ، فمجـيء الاستعارة في ثوب المضارع ساهم في إبراز الصورة، وجعلها في ذروة البلاغة تنبض بالحيـاة والبقـاء ، وجـاء الكاتـب بعـدد مـن الألفـاظ المتناسـبة فنجـد مراعـاة النظيـر في(الرّوايات ، الثّقات، الأحاديث ، المنقولات) و(الأقاصيص، الحكايات) ونرى الكاتب قد ناسب بين تلك الألفاظ بحيث لا يشذ لفظ عن لفظ ، فجاءت الألفاظ متناسقة واندمجت في المعنى الذى يريده الكاتب من إثبات أفضلية الكلام، وإظهار الأدلة المثبتة في تلك المصادر، فجاء الكلام عذباً كل لفظ يسكن إلى جاره ، ويطمئن إليه ومتعلق به، وتكاتفت جميعاً في إثبات أفضلية الكلام، وقد قيد الرّوايات بأنها(عن الثّقات)، لبيان كونها مضبوطة مأخوذة من أهل الثقة ، فالكاتب يتحرى الدقة في معانيه لتقع موقع القبول من مخاطبه ، وجاء بالسجع المتوازي بين نهاية الفقرات ليعلو النغم ، وإيقاع الموسيقى الذى ينشأ من تكرار الحروف القائم عليها السجع ، والتناسب بين الألفاظ ، كما أن التعبير بـ(ما) الموصولة في (ما تكلمت)، وما فيها من رحابة الدلالة والابهام، تفتح باباً للمتلقي ليتخيل ما شاء أن يتخيله من الأدلة المثبتة على فضل الكلام ، وجمع بين(الخطباء ، البلغاء) ليدلل على اتفاقهم على أفضلية الكلام، وعبر الكاتب بأفعل التفضيل(أكثر) للدلالة على كثرة هذه الأدلة ، وأنها فوق الحصر، فلا يدرك أولها، ولا يبلغ آخرها، وقد جاء الطباق بين(أولها ، آخرها)، ليؤكد بالجمع بين المتضادين على أفضلية الكلام وكثرتها وعجز أي أحد عن إحصائها ، فساعد على تثبيت المعنى في ذهن السامع ، وقد وظف الجاحظ الرابط(لكن) توظيفاً دقيقا، ووضعه في مكانه المناسب، وقصد به استدراك مجموع ما قيل عن فضل الكلام في القرآن والأقاصيص، والسمر والحكايات؛ ليخصصه في هذه الرسالة، التي اكتفى فيها بالقدر المهم، ولذلك أتى بعبارة(قد ذكرت من ذلك على قدر الكفاية) بعد أداة الاستدراك(لكن) مباشرة ،

ويؤكد الكاتب دائماً لمخاطبه أن استعانته دائما بالله عز وجل فيقول:(ومن الله التوفيق والهداية) فهو سبحانه ولى التوفيق.

الحجة الرابعة: الكلام ينجى صاحبه.

ولم يقف الجاحظ في رسالته عند هذا الحد من الحجج والبراهين التي تؤيد فكرته وتقنع خصمه بها بجانب جذب انتباهه واستمالة قلبه ، ولكن يسوق له عدداً من الأدلة والبراهين النقلية ، والتي تظهر فضل الكلام ، ومنها قصة سيدنا إبراهيم(عليه السلام)، وقد مهد لعرض هذه الاستشهادات بالمقدمة السابقة ، وفيها يقول:(وقد ذكر الله (جلّ وعزّ) في قصّة إبراهيم (عليه السلام) حين كسّر الأصنام وجعلها جذاذا، فقال حكاية عنهم: ﴿ **قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾** ﴾[1] فكان كلامه سببا لنجاته، وعلّة لخلاصه، وكان كلامه عند ذلك أحمد من صمت غيره في مثل ذلك الموضع، لأنّه(عليه السلام) لو سكت عند سؤالهم إيّاه لم يكن سكوته إلّا على بصر وعلم، وإنّما تكلّم لأنّه رأى الكلام أفضل، وأنّ من تكلّم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن، وليس من سكت فأحسن قدر أن يتكلّم فيحسن).

وجاء الجاحظ بـ(قد) الداخلة على الفعل الماضي، ليؤكد حجته، ويدلل على فضل الكلام بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث كان(عليه السلام) يحاور قومه ، وما يعبدونه من دون الله تعالى، ويبين لهم أن ما يعبدونه من دون الله عز وجل أصنام لا تنفع ولا تضر، فهي من صنع أيديهم فمحال أن تكون محلاً للتقديس والعبادة ، ولكى يبطل سيدنا إبراهيم دعواهم أكثر عمِد إلى محاجتهم بطريقة علمية أكثر إثارة لهم، إذ قام بتكسير أصنامهم بالكامل ، وترك كبيرهم شاهداً على ضلالهم لذلك قالوا﴿**ءَأَنتَ فَعَلْتَ**

([1]) سورة الأنبياء، الآية(٦٢-٦٣).

هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ فأجاب سيدنا إبراهيم بما يكون دليله أقوى عليهم، فقال:﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ ، ويقول الزمخشري(هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني، والقول فيه أنّ قصد إبراهيم(عليه السلام) لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم)[1]، فجاء الخبر في معنى التشكيك أي لعله فعله كبيرهم ، والضمير في(فَسۡـَٔلُوهُمۡ) شمل جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقى ، وبذلك أراد سيدنا إبراهيم أن يقنعهم، بأن حدثاً عظيماً، مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعله بهم ، فيتساءل بعدها إبراهيم(عليه السلام) في حضرتهم، كيف يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، فكلامه (عليه السلام) يدعوا إلى التعقل ، والإقرار بأن الله هو الأحق بالعبادة دون سواه حتى وإن ظل القوم معرضين عن حججه، منكرين لآرائه ، وعلى الرغم مما تحمل من صدق المعنى ووضوح البرهان ، فحديثه (عليه السلام)هذا ومجادلته لهم، كانت سبباً في نجاته، فقد أخذ بأسباب النجاة من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، حتى قال له جبريل(عليه السلام) حين رمى به في النار: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال: فسل ربك. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، وعن ابن عباس(رضي الله عنه): إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل[2]، ونرى أن الجاحظ قد عمد في هذه الفقرة إلى حجة الاستشهاد ، وغايتها توضيح القاعدة، وتكثيف حضور الأفكار في الذهن ، والقرآن الكريم يعد مصدراً خصباً لهذه الأشكال الحجاجية ، فهو وجيز اللفظ بليغ العبارة ، ولعل الجاحظ ركن لهذا النوع من الحجج، لكون الوازع الديني له تأثير

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري (٣/ ١٢٤) دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣- ١٤٠٧ هـ.

(٢) الكشاف(٣/ ١٢٦).

على النفوس والأفكار، وقد جمع الكاتب مع هذه الحجة الحجة الرمزية أيضاً، من خلال توظيفه الرمز في النص، وهى الأصنام التي ترمز إلى الصم والبكم والجمود، وما يكرس هذا الترميز هو قصة إبراهيم عليه السلام حين قال لعبدة الأصنام ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، ومن هنا نستمد المرجعية الرمزية التي تحيل عليها الأصنام(وللرمز قوة تأثيرية في الذين يقرون بوجود علاقة بين الرامز والمرموز له كدلالة الميزان للعدالة)[1]، وهنا لم يغفل الجاحظ عن استعمالها بدقة ، ويعقب الكاتب على هذا الاستشهاد قائلاً:(فكان كلامه سبباً لنجاته، وعلّة لخلاصه ، وكان كلامه عند ذلك أحمد من صمت غيره في مثل ذلك الموضع)، فبين أن كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام، كان سبباً لنجاته فأتي بالترادف بين(سببا ، علة)،(نجاته وخلاصه)، ليؤكد بتكرار المعنى مع اختلاف اللفظ على ما يريده الكاتب من تقرير وتأكيد أفضلية الكلام ، وأنه يكون فيه النجاة من الهلاك ، وليس هناك أدل من تلك الآيات البيِّنات، وبين أن كلامه(عليه السلام) كان أفضل من السكوت مستخدماً أفعل التفضيل(أحمد)، ليبين مدى المفارقة بين الصمت والكلام في ذلك الموضع ، وعبر باسم الإشارة(ذلك) الذى للبعيد، ليدل على عظم هذا الموقف ، وقد أفاد التكرار له التأكيد على هذا المعنى، ثم أتى بالتعليل لحكمه فقال:(لأنّه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم إيّاه لم يكن سكوته إلّا على بصر وعلم وإنّما تكلّم لأنّه رأى الكلام أفضل، وأنّ من تكلّم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن، وليس من سكت فأحسن قدر أن يتكلّم فيحسن)، فجاء بالجملة تعليلاً لكلامه السابق، وهى لا محل لها من الإعراب ، وجاء بالعلة في ثوب الشرط مستخدماً(لو) بمعنى أنه لو امتنع عن الكلام، لكان سكوته عن علم، بأنه جانى في حقهم ، وجاء الجواب بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء ؛ لإقناع مخاطبه وتهيئته، لقبول فكرته وللتأكيد على أن سكوته (عليه السلام)لم يكون وقتها إلا عن علم بأن السكوت أفضل من الكلام، والجمع بين النفي

(1) التداولية والحجاج ، مداخل ونصوص ، صابر الحباشة، ص:(٤٩) ط١، ٢٠٠٨م.

والاستثناء يظهر عبقرية الكاتب، وقوة تأثيره على مخاطبه، ومراعاة حاله من الإنكار، فلما كان المخاطب منكراً لفضل الكلام ، وكان تكرار هذا الأسلوب من أول الرسالة عاملا من عوامل إقناعه، لما يشتمل عليه من التأكيد ، ولما فيه من تنبيه السامع ، وحمله على الإصغاء لما يلقى إليه من كلام وبذلك يعمل على إقناعه ورسوخ المعنى لديه، كما أنه من طرق الإيجاز، وفيه ترجيح النغمة وتساوق الإيقاع المتساوي ، وأتى بالترادف بين(بصر، وعلم) ليزيد المعنى تأكيداً، وتابع الكاتب إقناعه لكاتبه فأتي بقوله:(وإنّما تكلّم لأنّه رأى الكلام أفضل)، معطوفاً على ما قبله، لكونه من الدواعي التي جعلت سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يفضل الكلام على الصمت في حواره مع قومه، وأن كلامه (عليه السلام)، وإسناد الفعل الصادر منه إلى كبيرهم لإلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وقد جاء بأسلوب القصر(إنما)، ليؤكد على أن الكلام أفضل من الصمت ، وهذا لا مجال لإنكاره فـ(إنما) تأتى في المعاني الجلية الواضحة، و(طريق إنما يسلك مع مخاطب في مقام لا يصر على خطئه، أو يجب عليه أن لا يصر على خطئه، والأصل في إنما أن تستعمل في حكم لا يعوزك تحقيقه إما لأنه في نفس الأمر جلي أو لأنك تدعيه جليا)[1]، ويسلك الكاتب طريقاً آخر لإمتاع مخاطبه من خلال العكس والتبديل[2]، في قوله:(وأنّ من تكلّم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن، وليس من سكت فأحسن قدر أن يتكلّم فيحسن)، حيث أضفى على العبارة حسناً نابعاً من هذا التقديم والتأخير مع جذب انتباه المخاطب وإقناعه بأن من يقدر على الكلام، فيحسن كذلك قادر على السكوت أيضاً وليس العكس.

---

(١) مفتاح العلوم ص:(٢٩٤).

(٢) العكس والتبديل: هو أن تقدِّم في الكلام جُزءاً ثم تعكس: بأن تُقدِّم ما أخرت، وتؤخر ما قدّمت، يراجع: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ص:(٣٢١).

ونرى أن الكاتب في عرضه لقصة سيدنا إبراهيم تناوب حرفي(السين)،(والكاف) والسين مخرجها من طرف اللسان مع ما بين الثنايا[١]، وهو حرف مهموس رخو مرقق، حيث تنتشر معانى الهدوء والسكون في الكلمات التي جاءت فيها السين وهو الإحساس الذى كان يسيطر على سيدنا إبراهيم عليه السلام، لإيمانه بعقيدته مثل(كسر، فسئلوهم، سبباً ، سكت ، أحسن) كما أن(السين) من حروف التنفيس يمكِّن المتلقي من سماع الصوت، والتأثر بما يعرضه المتكلم ، وامتازت الكلمات التي بها(الكاف) بالإيقاع القوى العنيف (ذكر، حكاية، كبيرهم، كلامه، تكلم ، الكلام ، سكت) على قوة موقفه ، وكأن كلامه(عليه السلام) لقومه كانت صفعة مدوية لهم، لتفتح أعينهم على حقيقة ما يعبدون، وعجزهم عن الكلام، وإخبارهم من فعل هذا بهم ، فكانت المزاوجة بين الحرفين في هذه الحجة من عوامل إقناع مخاطب الجاحظ بأهمية الكلام، وكيف كان سبباً في نجاة صاحبه.

الحجة الخامسة: الكلام يبين فضل صاحبه.

وهنا ذكر لنا الكاتب حجة أخرى، لتكون وسيلة لإقناع مخاطبه، بأن الكلام أفضل من الصمت ، فبين أن الكلام يظهر قدر الناس، وفضلهم فينالوا التقدير والإكرام، حيث قال:(واعلم- حفظك الله- أنّ الكلام سبب لإيجاب الفضل، وهداية إلى معرفة أهل الطّول ، ولولا الكلام لم يكن يعرف الفاضل من المفضول، في معان كثيرة، لقول الله عزّ وجلّ، في بيان يوسف عليه السلام وكلامه عند عزيز مصر، لمّا كلّمه فقال﴿ **إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾[٢]، فلو لم يكن يوسف(عليه السلام)أظهر فضله بالكلام، والإفصاح بالبيان، مع محاسنه المؤنقة، وأخلاقه الطّاهرة، وطبائعه الشريفة، لما عرف العزيز

---

(١) المعجم الوسيط ، باب (القاف)(٧٠٩/٢) ، باب (السين)(٤١٠/١).

(٢) سورة يوسف جزء من الآية(٥٤).

فضله، ولا بلغ تلك المنزلة لديه، ولا حلّ ذلك المحلّ منه، ولا صار عنده بموضع الأمانة).

وهنا يستدل الجاحظ بدليل آخر من القرآن الكريم على فضل الكلام فإذا كان النطق في قصة إبراهيم (عليه السلام) سبباً في نجاته، فهو في قصة يوسف (عليه السلام) كان سبباً في معرفة فضله ، والكلام الذى تفوه به لدى عزيز مصر هو الذى لفت إلى فطنته وذكائه فقربه منه وأكرمه ، ويأتي بالجملة المعترضة(حفظك الله) لاستمالة قلب مخاطبه، وتهيئته لقبول ما يلقى إليه من كلام ، وقد استند الكاتب لأسلوب الشرط وما يكسبه للكلام من تلاحم وترابط بين الشرط وجوابه، فجاء بـ (لولا) الشرطية، ليدل على امتناع معرفة أهل الفضل، والتمييز بين الفاضل والمفضول بدون الكلام، واستخدم(لم)، ليؤكد المعنى المراد، ولنفي حدث معرفة الفاضل من غيره بدون الكلام ، و(لم) لنفى الحدث بالإضافة إلا أنها لا تحتاج إلى مطل في نطقها ولا إلى مد في أدائها ، وإنما هي عبارة عن وخزات سريعة ينتبه بها المخاطب ، ويستمع لما تحويه من معان ودلالات، فتكون أعون على توصيل المقصود من أقرب طريق[1]، ويستشهد بقول عزيز مصر ليوسف عليه السلام ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾،أى ذو مكانة ومنزلة أَمِينٌ مؤتمن على كل شيء[2]، وجاءت الآية القرآنية مؤكدة بما منحه عزيز مصر لسيدنا يوسف فجاءت(إنَّ) التي للتأكيد مسند إليها كاف الخطاب، وجاء تقديم الظرف(اليوم)، للتخصيص ولبيان سرعة تمكينه، فهو اليوم وليس الغد، وجاءت(مكين) صفة مبالغة، للدلالة على تأكيد تمكينه فكان كلام يوسف(عليه السلام) ، وبيانه ، وإفصاحه سبب في وضعه موضع ثقة ، ولم يقتصر الكاتب على جعل كلام يوسف (عليه السلام) فقط هو السبب في تفضيله، ولكن جمع معه أخلاقه ، وطبائعه الشريفة ، فاستخدم الصفة، ليبين ما

(1) حروف المعاني وبلاغة النص، ص:(٥٦).

(٢) الكشاف(٢/ ٤٨١).

يجمعه نبي الله يوسف عليه السلام مع حسن البيان من الأخلاق والطبائع الطاهرة ، ويأتي جواب الشرط (لما عرف العزيز فضله، ولا بلغ تلك المنزلة لديه، ولا حلّ ذلك المحلّ منه، ولا صار عنده بموضع الأمانة)، وقد جاء جواب الشرط مقترن باللام الداخلة على (ما)، للتأكيد على نفى معرفة العزيز فضل يوسف، لولا إفصاحه وبيانه ، ودخلت (ما) على الماضي لتأكيد نفى المعرفة ، ثم يأتي تكرار النفي، بـ(لا) في(ولا بلغ، ولا حلّ ، ولا صار) فكان النفي فيه استطالة ومد أفادته الدلالة الصوتية لـ(لا) تناسب مع المعنى في أن عدم بلوغه المنزلة العالية ، وحلوله فيها سيكون منفياً نفياً ممتداً لولا كلامه ، فاكتسب المعنى قوة من خلال الدلالة الصوتية، وجاء بالإشارة إلى منزلة سيدنا يوسف (عليه السلام) ومكانته بـ(تلك ، ذلك)، وهما للبعيد، لبيان عظم تلك المنزلة، وهذه المكانة التي نالها بفضل بيانه ، وعبر بالفعل (بلغ) إشارة إلى قمة الوصول إلى منزلة رفيعة، لما تدور حوله هذه المادة من الوصول والانتهاء ، وجاء جناس الاشتقاق المغاير بين(حلّ ، المحلّ)، ليمتع به قارئه ، ويقنعه إلى ما وصل إليه يوسف (عليه السلام) لدى عزيز مصر، وقد أدى دوره في إظهار الحركة النفسية الداخلية للكاتب، واقتناعه بقضيته ، ومحاولته لإقناع مخاطبه من خلال التركيز على مادة واحدة تجمع الفعل والاسم ، وهى طريقة من طرائق ترديد الأصوات، ليحقق النغم ، فيتمتع بها القارئ، وترسخ المعاني في ذهنه، وجاء التقديم للظرف(عنده)، لتخصيص نفى أن يكون يوسف(عليه السلام) لدى عزيز مصر لا غيره في موضع الأمانة ، وجاءت(الباء) التي للإلصاق، لبيان مدى التصاق صفة الأمانة بالنبي الكريم(ﷺ)، وقد قام الكاتب بتوفير عنصر الإمتاع لمخاطبه، إلى جانب إقناعه، ولجأ للسجع القصير بين جمل هذه الفقرة ، وهو سجع متوازي متفاوت المقاطع، فجاء غير متكلف يوحى به الطبع ، ويقضى به سياق الكلام، وتتطلبه طبيعة الموضوع ، فالسجعات أتت مركزة، كأنها ضربات متتابعة من المواعظ للتنبيه على فصاحة يوسف(عليه السلام)، وللملائمة والاتساق ومراعاة المعنى، وليس مجرد الحلية اللفظية، فالتنوع في حرف الروى وفى

الفاصلة ووزنها ليس للاستمرار في شكل التغاير وتنغيم الصوت ، وإنما فوق تلك السمات لخدمة المعنى وتقريره فكان لجرسها السريع والمتتابع وقع للألفاظ والتنبيه ، وبهذا برع الجاحظ في أن يوظف مهارته البيانية ، وثقافته الدينية، في الدفاع عن قضيته، وإقناع خصمه، وعلى الجملة فإن هذه الشواهد تحمل طاقة حجاجية وإفهامية وإقناعية.

الحجة السادسة: الكلام دليل على الايمان والشريعة.

ويسوق لنا الجاحظ حجة أخرى على بيان أفضلية الكلام فيقول:(وكفى بالكلام فضلاً، وبالمنطق منقبة أن جعل الله الكلام سبيل تهليله وتحميده، والدّالّ على معالم دينه وشرائع إيمانه، والدّليل إلى رضوانه، ولم يرض من أحد من خلقه إيمانا إلّا بالإقرار، وجعل مسلكه اللّسان، ومجراه فيه البيان).

وهذه الحجة قائمة على أن الكلام وسيلة للتهليل والتكبير، والتهليل هو(قول لا إله إلا الله) وجاء في الوسيط ، (هلل) الرجل قال لا إله إلا الله[١] ، وكبر فلان تكبيرا قال الله أكبر تعظيما لله[٢]، وهذا ضرب من الإيجاز والاختصار يسمى(النحت)[٣]، فذكر الله بالتسبيح، والحمد والتكبير، لا يتحقق إلا بالتلفظ والنطق، وهذا الذكر هو منجاة وفلاح ، وإذا علم الإنسان أنه لا اله الا الله، ، فاستقام في أخلاقه وسلوكه وعبادته، وكلمة التوحيد نهاية العلم بالله عز وجل، وليس هناك غاية أسمى من ذلك، ولا يحققها إلا الإقرار لله بالوحدانية ، وهنا وضع الكاتب عين مخاطبه على هذا الجانب الذي يمس

---

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٩٩٢) مادة (هلل).

(٢) المرجع السابق(٢/ ٧٧٣) مادة (كبر).

(٣) النحت : هو أن تَنْحِتُ من كلمتين وثلاث كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار ، يراجع: فقه اللغة وسر العربية ص(٢٦٩): تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، إحياء التراث العربي ، ط١، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

الجانب العقائدي لديه، ووسيلة لإقناعه بفضل الكلام، ونكر(سبيل) للتعظيم والتفخيم أي طريق عظيم فخم، لذكر الله وتكبيره ، ودلّ على إرادة التفخيم قرينة تفضيل النطق ، وعلى هذا حذف الوصف الدال على التعظيم، والاكتفاء بدلالة التنكير، مع دلالة قرينة الحال وهذا أيضاً من الإيجاز، وقد حقق هذا الحذف نوع من المبالغة التي يراد ترسيخها لدى المتلقي ، بجانب تللك الطاقة التخيلية التي ولدها الحذف لديه(ويشكل الحذف وسيلة المتكلم في التركيز على الخبر أو جزء منه نفياً أو إثباتاً ، أو تكوين انطباع معين لدى المتلقي ، وفى كل الحالات تكون شحنة تضاف إلى المعلومة المعطاة ، ويقصد بها مزيد من التأثير على السامع)[1]، وجاءت(أن) المخففة لتأكيد المعنى ، وعبر عن الكلام بأنه(الدّالّ) بصيغة اسم الفاعل، لبيان ثبوت هذه الصفة لدى الكلام، فهو الدليل والطريق لمعرفة شريعة الله عز وجل، وأمور الدين ، وهو الطريق الموصل لرضوان الله، فعبر بصيغة الفاعل(الدّالّ)، وصيغة المبالغة(الدّليل) بالإضافة إلى التشديد فيهما، ليؤكد على دور الكلام الفاعل في الهداية والبعد عن الضلال، لإفادة ثبوت الوصف للموصوف ؛ لأن المتحدث عنه هيئة ثابتة، بالإضافة لجناس الاشتقاق بينهما ، ودوره في إظهار الحركة النفسية الداخلية للكاتب واقتناعه بقضيته ، ومحاولته لإقناع مخاطبه، من خلال التركيز على مادة (دلَّ)، لبيان أن الكلام هو الدال الوحيد على طريق الهداية ، وقوله:(معالم دينه وشرائع إيمانه) كناية عن الأوامر والنواهي التي جاء بها الدين ، وركائز الإيمان ، ولمزيد من إقناع المخاطب يربط الكاتب بين رضا الله تعالى، وقبوله لإيمان عبده بالإقرار والتلفظ بالشهادة ، فالإيمان يساوي الاقرار باللسان، وتلاوة الشهادتين جهراً فيقول:(ولم يرض من أحد من خلقه إيمانا إلّا بالإقرار، وجعل مسلكه اللّسان، ومجراه فيه البيان)، عن طريق القصر بالنفي والاستثناء قصر صفة على موصوف، حيث قصر صفة الرضى بالإيمان على الإقرار، وقام القصر

(1) البلاغة العربية بين الإقناع والإمتاع ص:(١٣٩).

بدوره بالتأكيد على أفضلية الكلام، وربطه بأعظم شيء، وأحد أركان الإسلام وبنائه الذى يقوم عليه إسلام العبد ، ويبين أن طريق هذا الإقرار هو اللسان، فهو آلة الكلام ، وهو الذى يترجم الإيمان الواقر في القلب ، فقد جعل اللسان على الفؤاد دليلا ، كما نلحظ تكرار حرف الجر (من)، وذلك لبيان الاستيفاء الكامل والشامل لعدم الرضى بالإيمان من أحد من الخلق دون الإقرار ، وذلك لما للحرف من طاقة قوية تتفاعل مع السياق وتؤدى المعاني عند ذكره مالا يؤديه عند حذفه.

الحجة السابعة: السكوت يفضى إلى الهلاك.

ويواصل الكاتب إقناعه لمخاطبه بفضل الكلام ، ويبين أنه لا يجنح أحد للصمت إلا لعجزه عن الوصول للصواب فيقول:(ولم يحمد الصّمت من أحد إلّا توقّيا لعجزه عن إدراك الحقّ والصّواب في إصابة المعنى، وإنّما قاتل النبيّ (ﷺ) المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إياه ، ليقرّوا به، فإذا فعلوه حقنت دماؤهم ، وحرّمت أموالهم ، ورعيت ذمّتهم، ولو أنّهم سكتوا ضنّا بدينهم لم يكن سبيلهم إلّا العطب)، وهنا يستشهد بموقف الرسول(ﷺ) مع مشركي مكة ، وجاء بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء، ليعبر عن هذه المعاني ، ومعناه أن الصمت لا يحمد إلا في حالة العجز عن الفهم والتعبير، وقد أفاد النفي والاستثناء التلاحم والتضاد، فأبرز الجمال فيها(لأن الجمال يكمن بالاتفاق المتلائم بين الجمل المتغايرة فالجمع في أسلوب القصر بين النفي والاستثناء يظهر عبقرية المبدع وقوة تأثيره على النفوس)[1]، وجاء الفعل(يحمد) في سياق النفي، ليدل على استمرارية نفى تفضيل الصمت ، وجاءت النكرة (أحد)، لتدل على العموم والشمول ، ثم استثنى من هذا النفي الحذر، وتجنب الوقوع في الخطأ، وجاء(توقّيا) وما فيها من التشديد والتنوين، لتدل على تأكيد

(1) تجليات الجمال في أسلوب القصر ، د/ عبدالرحيم محمد الهبيل ، مجلة الجامعة الإسلامية ، سلسلة الدراسات الإنسانية ص(٩٧٨) مجلد التاسع عشر ، العدد الثاني يونيو ٢٠٠١م.

المعنى المراد من شدة حرصه وحذره وتجنبه للكلام ليس لشيء ، وإنما لعجزه عن التعبير عن المعنى المراد بطريقة صحيحة ، وجاء بالترادف بين(الحقّ ، والصّواب)، لتأكيد المعنى في ذهن مخاطبه من خلال التكرار الذى أحدثه الترادف، وإقناعه بأن الصامت عاجز عن إدراك الصواب ، ثم يعطف الكاتب على قوله السابق(وإنّما قاتل النبيّ (ﷺ) المشركين) للتوسط بين الكمالين، واتفاق الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى، وقد غاير الجاحظ في هذه الجملة طريق القصر، حيث استخدم (إنما) لكونها مما لا يجهل عند الجميع ، ولا يستطيع القارئ دفعه وإنكاره[١]، وهنا قصر صفة على موصوف ، والمقصور هو القتال ، والمقصور عليه المشركين قصراً حقيقياً تحقيقياً ، وجاء بالفعل(قاتل)، لتدل زيادة المبنى فيه على زيادة المعنى، حيث تستخدم هذه الصيغة لبيان المفاعلة والتكثير والتعدية ، ولم يكن القتال من جانب النبي والمسلمين فحسب، وإنما كان هناك مفاعلة بين المسلمين والمشركين ، وجاء ظرف المكان(عند) اسم للحضور المعنوي، وهو حضور الجهل بالله تعالى لديهم وإنكارهم إياه ، ثم يأتي التعليل والسبب لهذا القتال وهو(ليقرّوا به)، فجاءت الجملة التعليلية، لبيان السبب وتوضيح العلة ، وأصل الْإِقْرَار من التَّقْرِير وَهُوَ تَحْصِيل مَالم يُصَرح بِهِ[٢]، وجاء في اللسان: القر: ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه[٣]، فالإقرار يراد به النطق باللسان، والضمير في(به) يعود إلى صاحب الذات العلية(الله) جل وعلا ، وجاء الكاتب بأسلوب الشرط(إذا) التي تستخدم في المجزوم والمقطوع به، ليؤكد على أنهم لو أقروا بالله تعالى، لحقنت دمائهم ،(فالشرط بـ(إذا) مقطوعاً بوقوعه كما تدل على الجزم

---

(١) دلائل الإعجاز، ص(٣٣٠).

(٢)الفروق اللغوية للعسكري ص:(٤٨) ت/محمد إبراهيم سليم، دار القلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

(٣) اللسان ، مادة (قرر).

بشرطها)[1]، وجاءت جملة(فإذا فعلوه حقنت دماؤهم) معطوفة بالفاء، ليؤكد بهذا العطف على سرعة تغيير مصيرهم في حالة إقرارهم بالتوحيد ، وأكد هذا مجيء فعل الشرط على صيغة الماضي،(لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع نظراً إلى اللفظ)[2]، وقد نقل من الماضي إلى المستقبل المطلق المقطوع بحدوثه، وجاء جواب الشرط(حقنت دماؤهم ، وحرّمت أموالهم ، ورعيت ذمّتهم)، وربط بين الجمل الثلاث بـ(الواو)، لبيان مدى التلاحم بينها، واشتراكها في الحكم، فجميعها يتحقق إذا أقروا بالوحدانية، ولوجود المناسبة بينها، وقد جاءت الجمل الثلاث متناسقة ، وتصاعدت فيها النغمات المتتالية التي تجذب الآذان ، وتهز الوجدان، فتنبه لها الذهن ، وزادت المعنى قوة ورسوخاً فى ذهن المتلقي، فقد تميزت بتساويها، وقصرها ، والسجع الناشئ من ضمير الجمع(هم) الذى يعود على المشركين، وكذلك بناء الأفعال الثلاث للمفعول بصيغة الماضي للقطع بحدوثها ، وإفادة العموم والشمول وللتركيز على الفعل ، وتسليط الضوء عليه، وأثره على المقرين بالوحدانية، فجزاء الإقرار عظيم ، وهو حقن دماء وحرمة أموال من أقر باللسان، ثم رعاية ذمتهم بعد الاسلام، وإذا أمَّن أحدهم مشرك رعيت ذمته ، فكان جزاء الإقرار على أرض المعركة وبعدها، وقد حذف الفاعل تعظيما له ، وهو النبي(ﷺ) ، وهذا المعنى فيه تناص بالمعنى من قوله(ﷺ) عن أبى هريرة قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ »[3] وقد منح هذا التناص الرسالة

(1) البلاغة العالية "علم المعاني" عبدالمتعال الصعيدي ، ص(٩٩) تقديم ، ا. د، عبدالقادر حسين ، مكتبة الآداب ، ط٢، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

(2) بغية الإيضاح (١٦٩/١).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتَابُ (اسْتِتَابَةِ المُرْتَدِّينَ وَالمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ) ، بَابُ (قَتْلِ مَنْ أَبَى قَبُولَ الفَرَائِضِ، وَمَا نُسِبُوا إِلَى الرِّدَّةِ) حديث رقم (٦٩٢٤) (٩/ ١٥) يراجع: صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ، ط ١، ١٤٢٢هـ.

مصداقية متميزة انطلاقاً من مصداقيته(ﷺ) كما يكشف عن العلاقة التي تربط بين النص الأدبي الحاضر بالنصوص الغائبة ، ويوظفه في التأكيد على معانيه، والتأثير على مخاطبه.

وأتبع الكاتب الشرط بشرط آخر مغيراً الأداة فقال:(ولو أنّهم سكتوا ضنّا بدينهم، لم يكن سبيلهم إلّا العطب)، مبيناً مصيرهم في حالة سكوتهم، وعدم إقرارهم بالوحدانية ، فامتنع هلاكهم لامتناع سكوتهم ، وقد عضد الشرط العديد من التأكيدات التي لعبت دوراً بارزاً في إقناع المخاطب ، منها المجيء بـ(أنَّ)، ليؤكد على هلاكهم إذا لزموا السكوت ، والتعبير بالمصدر(ضنّا) ومعناها الإمساك والبخل[١]، وهناك نكتة في استعمال الكاتب لفظة(ضنّا) دون غيرها من الألفاظ الدالة على المعنى نفسه ، وهى أنها تستخدم في نفائس الأشياء ، وهذا يكشف على شدة تمسكهم بدين آبائهم ، والباء التي للإلصاق تؤكد هذا التمسك ، ويأتي جواب الشرط جملة قصر طريقه النفي والاستثناء(لم يكن سبيلهم إلّا العطب) وجاء بـ(لم) التي تنفى أصل الحدث ، وتنفيه في مرحلته الأولى، وقد دخلت على المضارع، لبيان استمرارية نفى أن يكون لهم سبيل آخر غير الهلاك ، والعطب يعنى الهلاك[٢]، ولما كانت الكلمات ليست أجزاءً تتراص بعضها بجانب بعض، وإنما يجب وضعها في سياق لغوى قادر على منح بعضها البعض دلالات ومعاني تجعل الأسلوب متناسب البنيان، محكم التراكيب جاء الكاتب بلفظ (العطب) دون غيره، لأنه يكون في الناس وفى غيرهم ، وهذا يؤكد على أن سكوت المشركين عن الإقرار بالوحدانية يكون إهلاكاً لهم ، ولكل شيء حولهم فهو هلاك فيه إحاطة وشمول وتدمير لكل شيء، وقد أدى تعانق الشرط والقصر دوره في تأكيد المعنى وإقناع المخاطب بأن السكوت قد يفضى إلى هلاك صاحبه ، وقد استخدم الكاتب أحد الظواهر

---

(١) اللسان، مادة (ضنن) .

(٢) اللسان، مادة (عطب).

التي غلب عليها طابع الحجة والبرهان والإقناع ، ليؤثر في مخاطبه ، وهو الاستدلال[١].

الحجة الثامنة: الكلام سبباً في مضاعفة الأجر والصمت ساتر للفضل.

ويواصل الكاتب ذكر الحجج والبراهين التي تدل على أفضلية الكلام فيقول:(وقد جاء في بعض الآثار: لو أنّ رجلا ذكر الله تعالى وآخر يسمع له كان المعدود للمستمع من الأجر، والمذكور له من الثّواب واحدا وللمتكلّم به عشرة أو أكثر)، لصاحب العشر ذلك وفضل به على صاحبه إلّا عند استعماله بالنّطق به لسانه، ولم يلزم الصّمت أحد إلّا على حسب وقوع الجهل عليه، فأمّا إذا كان الرّجل نبيها مميّزا، عالما مفوّها فالصّمت مهجّن لعلمه وساتر لفضله، كالقدّاحة لم يستبن نفعها دون تزنيدها، ولذلك قيل: «من جهل علما عاداه».

ويسعى الكاتب جاهداً لإقناع مخاطبه من خلال الاستشهاد بالآثار الواردة عن السابقين ، فيقرر أن المتكلم بالذكر والناطق به يضاعف له الأجر بخلاف السامع ، والسبب هو النطق باللسان ، وهو وسيلة لنشر العلم والانتفاع به، والصمت مضيع لنفعه، وقد استخدم الجاحظ العديد من الأساليب البلاغية التي لعبت دوراً كبيراً في التأثير على مخاطبه ، منها:

أنه جاء بأسلوب الشرط، لبيان مدى تعلق الجواب بالشرط ، وهو مضاعفة أجر الناطق مقارنة بالسامع ، وهذا الشرط فيه حث على الذكر والنطق به، لنيل هذا الثواب العظيم ، وجاء (رجلاً) نكرة لإفادة التعظيم لهذا الذاكر ، أو إفادة العموم أي رجل ، ثم جاء جواب الشرط (كان المعدود) بصيغة الماضي، لبيان تحقق وقوعه ، وجاء التعبير بلفظ:(المعدود) في جانب الأجر، لما في الأجر من معنى المثامنة والمعاوضة

(١) والاستدلال: هو تقرير الدليل لإثبات المدلول، سواء كان ذلك من الأثر إلى المؤثر أو العكس، أو من أحد الأثرين إلى الآخر ، التعريفات لعلي الجرجاني ص:(١٧).

والانتفاع[١]، وجاء بلفظ(المذكور) في جانب الثواب، لأنه أشتهر فِي الْجَزَاء على الْحَسَنَات[٢]، وجاء التقديم للجار والمجرور في(للمستمع، له)، لإفادة التخصيص أي أن هذا الأجر، وذلك الثواب مختص به لا غيره، وهو قوله:(واحداً)، وجاء في المثل ما يؤكد على ميزة النطق وأجر الناطق بالذكر ومدى المفارقة بينه وبين المستمع من خلال بيان المضاعفة في قوله:(وللمتكلّم به عشرة أو أكثر)، والعشرة يعني عشرة أضعاف الأجر الذي للمستمع ، وهى كناية عن مضاعفة الأجر وكثرته، ثم يأتي الكاتب معلقاً على هذا الأثر بقوله:(لصاحب العشر ذلك وفضل به على صاحبه إلّا عند استعماله بالنّطق به لسانه) مبيناً أهمية النطق وأنه سبب في تفضيل صاحبه وتمييزه على غيره ، فجاءت اللام في(لصاحب) للتأكيد، واسم الإشارة الذى للبعيد، ليدل على عظم هذا الأجر ، ويؤكد على أن الصمت لا يكون إلا للجهل بالأمور، ولا يلزم الصمت الا من يجهل الجواب، أما العالم فينبغي الافصاح عن علمه من خلال القصر في قوله:(ولم يلزم الصّمت أحد إلّا على حسب وقوع الجهل عليه)، وجاء بحرف الجر(عليه) دون غيره وما تفيده من الاستعلاء والتمكن، ليدل على تمكن الجهل منه ، وبين أثر الصمت على صاحب العلم فقال:(فأمّا إذا كان الرّجل نبيها مميّزا، عالما مفوّها فالصّمت مهجّن لعلمه وساتر لفضله) ويؤتى بـ(أما) وهى حرف للاستئناف بتفصيل جملَة قد جرى ذكرهَا، وهى متضمنا معنى الْجَزَاء ولَا يَقع بعده إِلَّا الِاسْتِئْنَاف وَيسْتَقْبل بِالْفَاءِ[٣] ، وجاء الحال(نبيها مميّزا، عالما مفوّها) متوالياً، لبيان حال هذا الرجل من الجمع بين النباهة ، والعلم والتميز، وجاء جواب الشرط، ليكشف لنا الأثر السيء للصمت على العالم

(١) الفروق اللغوية، ص(٢٣٧).

(٢) السابق، ص(٢٣٧).

(٣) المقتضب، أبو العباس المبرد(٢٧/٣) تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت.

وتهجين الأمر: تقبيحه[١]، وجاء الكاتب باللفظ (مهجن ، ساتر) على اسم الفاعل، ليدل على ثبوت ودوام تقبيح الصمت لعلم هذا الرجل وستره لفضله ، ثم أتى الكاتب بالتشبيه في أعقاب المعاني، ليضاعف قوته ، ويعمل على تحريك نفس مخاطبه وإقناعه من خلال تصوير المعاني العقلية وهى أثر الصمت على العالم في صورة المحسوس فقال:(كالقدّاحة لم يستبن نفعها دون تزنيدها)، و(الزند) العود الأعلى الذي تقدح به النار، والقداحة حديدة الزند التي يقدح بها لتخرج النار[٢]، وهنا شبه العالم الساكت عن علمه بالقداحة التي لا يستفاد منها دون تزنيدها، بجامع عدم الاستفادة في كل ، فالصمت يخفى عِلم العالم ويقبحه، وحرصاً من الكاتب على إقناع مخاطبه بفضل الكلام وقبح الصمت، جاء بالتصوير الحسى، لكونه أكثر في الإقناع من المعنى العقلي، فالمشاهدة ليست كالسماع ، وعلى هذا يكون الغرض من التشبيه تقرير حال المشبه وتمكنه في ذهن مخاطبه بإبرازه في صورة هي الأقوى والأوضح، لكون المشبه به مما يدرك بالحواس ، والتشبيه بالمحسوس يفيد قوة وتمكناً ، والتشبيه هنا قد جاء جيداً ؛ لأنه قد صور معنى ذهنياً قلبياً في صورة حية بينة[٣]، ولم يكتف الكاتب بهذا، ولكنه يجتهد في حشد عدد من الحجج ليبرهن على صحة رأيه محاولاً إقناع مخاطبه، فأتى بحجة المثل ، فقال:(ولذلك قيل:« من جهل علماً عاداه»[٤]، والغاية من استعمال المثل حجاجياً هو التأسيس لقاعدة والبرهنة على صحتها ، وقد صور لنا الجاحظ صورة العالم الذى لا يستفاد منه لصمته، وجاء بالمثل ليبرهن على صحة كلامه ، فالجاهل لفضيلة الكلام يعاديه ، فهو لا يعرف قدره ، فمن جهل العلم عاداه ، وهذا مثل يضرب لذمّ الْإِنْسَان مَا لَا يُحسنهُ، وإدراج الجاحظ لهذا المثل شاهد على عمق ثقافته ، واستلهام

---

(١) اللسان، مادة (هجن).

(٢) المعجم الوسيط، مادة (قدح، زند).

(٣) التصوير البياني دراسة تحليليه لمسائل علم البيان، أ.د/محمد أبو موسى ، ص(١٤٣).

(٤) خاص الخاص، الثعالبي، ص:(٢٧) تحقيق حسن الأمين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان.

التراث العربي القديم، والاستشهاد به في الموضع المناسب الذى يقتضيه المقام ، فضلاً عن أنه من عناصر الإقناع التي استخدمها الكاتب، ليحقق التأكيد على موقفه وحرصه على بيانه وهو ينادى بفضل الكلام ، ويعكس الرؤية الفنية والجمالية للفكرة المعروضة.

الحجة التاسعة: نزول القرآن بلسان عربي مبين

ومن الأدلة التي ساقها الجاحظ لإقناع مخاطبه، بفضل الكلام على الصمت، هو نزول القرآن الكريم على النبي العدنان (ﷺ) بلسان عربي مبين، وكذلك إرسال كافة الرسل، وأمرهم بالتبليغ كان طريقه الكلام.

وحول هذا الدليل قال الجاحظ ما نصه:(ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب، وجعل لسانه عربيّا، وأنزل عليه قرآنه عربيّا، كما قال الله ﷻ:﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، فلم يخصّ اللسان بالبيان، ولم يحمد بالبرهان، إلّا عند وجود الفضل في الكلام، وحسن العبارة عند المنطق، وحلاوة اللّفظ عند السّمع، وقد قال النبي (ﷺ): «أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر» ، فهذه كلّها دلائل على دحض حجّتك ونقض قضيّتك، وإنّما أرسل الله تعالى رسله مبشّرين ومنذرين الأمم، وأمرهم بالإبلاغ ليلزمهم الحجّة بالكلام، لا بالصّمت، إذ لا يكون للرّسالة بلاغ، ولا للحجّة لزوم، ولا للعلّة ظهور إلّا بالنّطق).

وجاء الكاتب بـ(لام التعليل)، ليؤكد على أنه بسبب فضل الفصاحة، وبراعة التعبير أرسل الله سيدنا محمد (ﷺ) بلسان عربي مبين ، وجعل معجزته الكبرى القرآن الكريم ، وأتى بالترادف بين(الفصاحة، البيان) للتأكيد على مكانة الكلام وفضله، ولاسيما الكلام الفصيح في ألفاظه الواضح في معانيه ، وجاء بأفعل التفضيل في(أفضل ، أكرم)، للتأكيد على مكانة الرسول العظيم(ﷺ) كما جاء عطف(رسله) على(أنبيائه) من عطف الخاص على العام ، وذلك للتنبيه على فضل الرسالة ورفعتها، وما لها من المزية، حتى

كأنها ليست من جنس العام، وتنزيلا للتغاير في الوصف، منزلة التغاير في الذات[١]، كما جاء المجاز المرسل في(وجعل لسانه عربيّا)، والعلاقة الآلية، فاللسان هو آلة نطق اللغة ، وكون اللسان آلة لإيصال أثر شيء إلى آخر ، فالمراد به اللغة ، ولا يخفى أن المجاز من عوامل الإقناع، وإعمال الفكر، ويستشهد الكاتب على كلامه بآية من الذكر الحكيم هي قول رب العالمين:﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[٢] ،والاستشهاد بالنصوص القرآنية من أقوى الدلائل والبراهين، التي تدل على صدق الكلام ، كما أن نزول القرآن باللغة العربية في لفظ محكم عجز البشر على أن يأتوا بمثله حجة قوية على فضل الكلام ، فلو لم يكن له فضل ما جعل الله المعجزة الكبرى قرآناً يتلى وتعهده بالحفظ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ثم يستطرد كاتبنا في إقناع خصمه، فيقول:(فلم يخصّ اللسان بالبيان، ولم يحمد بالبرهان، إلّا عند وجود الفضل في الكلام، وحسن العبارة عند المنطق، وحلاوة اللّفظ عند السّمع)، وقد اعتمد على أسلوب القصر القائم على النفي والاستثناء لكون مخاطبه يجهل فضل الكلام وينكره ، وهنا نفى بـ(لم)، حيث دخلت على المضارع، فقلبته من الحال والاستقبال إلى الماضي، وذلك للتأكيد على أن اللسان لم يخص بالبيان ، ولم يحمد منه الدليل والبرهان، إلا في حالة توفر حسن اللفظ والعبارة وأن تكون مقبولة على السمع ، وهنا يشير الجاحظ لشروط فصاحة الكلام، وضرورة أن يكون خالياً من التنافر والثقل، ويأتي السجع بين(البيان، البرهان)، ليمتع به مخاطبه ويعمل به على تجدد نشاط سامعه ، ثم يعضد الكاتب حجته بنص نبوي شريف هو قول الرسول الكريم «أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر»[٣].

---

(١) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع، ص:(١٩٣).

(٢) سورة الشعراء الآية رقم(١٩٥).

(٣) أخرجه البغوي محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي(المتوفى: ٥١٦هـ) في كتابه شرح السنة، المكتب الإسلامي ، دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط–محمد زهير الشاويش، كتاب: الجمعة، باب: فرض الجمعة،(٢٠٢/٤).

وهذا النص النبوي الشريف يؤكد على أن النبيّ(ﷺ) كان أفصح العرب لسانا، وأحسنهم بيانا، وأسهلهم مخارج للكلام ؛ لأنه سبحانه وتعالى، لم يرسل نبياً، إلا وقد تفوق على قومه، فيما برعوا فيه ، وقريش من أفصح العرب لسانا، وأفضلها بيانا ، وهذه حجة أخرى على فضل الكلام ، فكانت من دواعي فخره (ﷺ) بنفسه وقبيلته.

ثم يعقب الجاحظ بعد هذه الحجج التي سردها مخاطباً خصمه بقوله:(فهذه كلّها دلائل على دحض حجّتك ونقض قضيّتك)، وجاء اسم الإشارة(هذه)، ليفيد الإيجاز، وتفادي التكرار، اكتفاءً بدلالة اسم الإشارة ، وقد يكون الغرض منه(إرادة التعريض بغباوة المتلقّي، إذ يُشْعِر أحياناً استخدام اسْم الإشارة بأنّ المخاطَب يحتاج، لتمييز المتحدّث عَنْهُ إلى إشارة حسّيَّةٍ، وأنَّه لاَ تكفيه الدلالات الفكريّة)[١]، وقد يكون الغرض منه، إرادة تمييز هذه الحجج، التي سبق ذكرها أكمل تمييز ويُحْضِرُهُا الكاتب في ذهْنِ المتلَقِّي، مبالغةً فِي تعيينها من خلال الإشارة إليها ، ونقض الشيء نقضا أفسده بعد إحكامه يقال نقض البناء هدمه[٢]، ودحض الحجة إبطالها وإزالتها[٣]، ويؤكد الكاتب على أن هذه الحجج التي ذكرها دليل على إبطال دعوى خصمه، من تفضيل الصمت على الكلام، بكل طريق، فهي إبطال لحججه التي استدل بها، ونقض لقضيته التي يدافع عنها، واللفظان قد أكدا نجاح الكاتب في إزالة هذه الدعوى وهدمها من خلال رسالته والدلائل التي اشتملت عليها.

ثم يقول:(وإنّما أرسل الله تعالى رسله مبشّرين ومنذرين الأمم، وأمرهم بالإبلاغ ليلزمهم الحجّة بالكلام لا بالصّمت، إذ لا يكون للرّسالة بلاغ، ولا للحجّة لزوم، ولا للعلّة ظهور إلّا بالنّطق)، عاطفاً هذه الحجة على سابقتها، مستخدماً طريقاً آخر من

---

(١) البلاغة العربية (١/ ٤٢٢).

(٢) المعجم الوسيط مادة (نقض).

(٣) اللسان، مادة (دحض).

طـرق القصـر وهو(إنمـا)، لأن إرسـال الرسـل هـو أمـر جلـى لا يقبـل الإنكـار، وهـذا ناسـبه(إنما) وهـذه الحجـة قائمـة علـى أن إرسـالهم علـيهم السـلام قـائم علـى الكـلام لا الصمت ، فدعوتهم لأقوامهم كانت وسيلتها الكلام ، ولولا الكلام ما كان هناك بلاغ ، ولا إلزام لهم بالحجة ، ولا ظهور لعلتهم، لأن طريق إظهار كل ذلك هو النطق ، لذلك جاء بـ(لام التعليل)، لبيان العلة من الأمر بالتبليغ، وجاء العطف بـ(لا) وهو أحد طرق القصر ، يُعطَفُ بها لإخراج المعطوف ممّا دخل فيه المعطوف عليه، فقصر إلزام الحجة على الكلام، لا الصمت، فالصمت ليس معه إلزام، وجاء بطريق آخر من طرق القصر وهو النفي والاستثناء في قوله:(لا يكون .... إلّا بالنّطق)، وبداخله طريق آخر، وهو التقديم للجار والمجرور في(للرّسالة ، للحجّة ، للعلّة)، للتأكيد على المعنى، ولإفادة التخصيص، أي أن الرسالة مخصوصة بنفي البلاغ ، والحجة مخصوصة بنفي اللزوم، والعلة مخصوصة بنفي الظهور، إذا لم يوجد الكلام ، وبهذا قد كثف الكاتب طرق التأكيد من خلال استخدامه لعدة طرق مختلفة من القصر أولها(إنما) ، ثانيها(العطف بـ(لا)، ثالثها(النفي والاستثناء)، رابعها(التقديم)، وكذلك التكرار لحرف النفي(لا) ثلاث مرات، ليؤكد بها مع امتداد صوتها على عدم تحقق الغاية من إرسال الرسل، بدون النطق بما كُلفوا به.

المبحث الرابع

بلاغة الإقناع والامتاع في ضوابط من يقدر على الإبانة

ومن وسائل الإقناع التي استخدمها الكاتب أنه بعد أن تحدث عن فضل الكلام عارضاً أدلته وبراهينه مقنعاً ، وممتعاً مخاطبه، لم يكتف بذلك، ولكنه أراد أن يؤكد على أن هناك ضوابط لابد أن يلتزم بها المتكلم، حتى يكون لكلامه فضل ، ويؤدى دوره في إفهام مخاطبه ، فيقول:

(وليس يقوى على ذلك إلّا امرؤ في طبيعته فضل عن احتمال نحيزته ، وفي قريحته زيادة من القوّة على صناعته، ويكون حظّه من الاقتدار في المنطق فوق قسطه من التغلّب في الكلام، حتّى لا يضع اللّفظ الحرّ النبيل إلّا على مثله من المعنى، ولا اللفظ الشريف الفخم إلّا على مثله من المعنى ، نعم وحتّى يعطى اللّفظ حقّه من البيان، ويوفّر على الحديث قسطه من الصّواب، ويجزل للكلام حظّه من المعنى، ويضع جميعها مواضعها، ويصفها بصفتها، ويوفّر عليها حقوقها من الإعراب والإفصاح).

وفى هذه الفقرة يضع الكاتب قاعدة للمتكلم، بأنه لابد أن تتوفر لديه الملكة القوية، التي تمكنه من نظم كلام فصيح فيه إبانة عن المطلوب ، ويكون لديه ملكة بلاغية ولغوية وأدبية تخدم معانيه، ولما كان مخاطبه يجهل فضل الكلام ، ومن يقدر عليه استخدم الكاتب أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، ليؤكد على أن الكلام والتعبير عن المعاني لها ضوابط تحكمها، مستخدماً أداة النفي(لَيْسَ) وهى لنفى الْحَال

والاستقبال[١]، وذلك للتأكيد على أنه لا يقدر على الكلام، إلا من توافرت فيه هذه الأمور ، وقد نكر لفظ (امرؤ)، للعموم والشمول ، وجاء حرف الجر(في)التي تفيد الوعائية ، مكررة في قوله:(في طبيعته، وفي قريحته)، لتؤكد على ضرورة تمكن تلك الملكة في طبيعة المتكلم، وقدرته الفائقة على الصبر والبحث في الموروث اللغوي ، ليصل للحد الأرقى في التعبير عن معانيه ، والنحيزة: الطبيعة، وقال الأزهري: نحيزة الرجل طبيعته[٢]، قريحة الإنسان: طبيعته التي جبل عليها، وجمعها قرائح، لأنها أول خلقته، وجاء التنكير في(فضل ، زيادة)، للنوعية فليس المقصود أي فضل وأي زيادة ، ولكنهما من نوع خاص تخدم الكلام وتنأى به عن الحشو والزيادة المخلة ، والصنعة المتكلفة ، كما أن الزيادة في قوته تجعله يفوق غيره في الكلام وإقناع مخاطبيه ، فيكون كلامه مميزاً ، ويأتي بالواو عاطفاً قوله:(ويكون حظّه من الاقتدار في المنطق فوق قسطه من التغلّب في الكلام) على ما سبق، للتوسط بين الكمالين ولسرد تلك الضوابط، ولبيان أن الأديب، لابد أن يكون قدرته في إفهام مخاطبه وإقناعه من خلال كلامه ، وليس لغلبة كلامه وكثرته، وهو بذلك يسعى إلى التأكيد على سلطان الكلام ، وربطه بالقول المقنع لا بالتوشية ، والأسلوب التنميقي الجمالي فقط ، وجاء لفظ(الاقتدار) بزيادة في المبنى، لتدل على الزيادة في المعنى ، فهو على وزن(الافتعال) وهذه الصيغة تحمل معانى القوة ، لذا عبر بلفظ الحظ لِأَن أصل الْحَظ (هُوَ مَا يحظه الله تَعَالَى للْعَبد من الْخَيْر)[٣]، والظرف(فوق) أكد على هذا وهو أن القدرة على الإفهام يجب أن تفوق الكثرة في الكلام ، فيضع اللفظ الشريف للمعنى الشريف ، والرقيق للمعنى الرقيق ، واللفظ الفخم الجزل للمعنى الجزل، فلا يجنح إلى القوة في موضع اللين ولا العكس،

---

(١) حروف المعاني والصفات، عبد الرحمن الزجاجي ص:(٨) تحقيق: علي توفيق الحمد الرسالة ، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

(٢) اللسان، مادة (نحز).

(٣) الفروق اللغوية للعسكري ص:(١٦٥).

وجاء في قوله:(لا يضع اللّفظ الحرّ النبيل إلّا على مثله من المعنى، ولا اللفظ الشريف الفخم إلّا على مثله من المعنى)، جمع بين الإقناع والإمتاع، حيث جاء الإقناع من خلال التأكيد على المعنى من خلال أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ، فيجب على المتكلم أن يختار اللفظ مناسباً للمعنى، من حيث الرقة والفخامة ، وجاء الإمتاع من خلال الاستعارة بالكناية في(اللّفظ الحرّ النبيل)،(اللفظ الشريف الفخم)، من خلال تجسيد اللفظ، وخلع صفات إنسانية عليه، حيث شبه اللفظ بالإنسان ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهى الحرية والنبل، فأكدت الاستعارة على ضرورة تحرى المتكلم الدقة في اختيار ألفاظه التي تعبر عن معانيه ، فيختار للمعنى الرقيق ألفاظاً رقيقة متناسبة معه ، والمعنى الفخم ألفاظ فخمة ، ويستمر الكاتب في بيان تلك الضوابط التي يجب على المتكلم التزامها فيقول:(نعم وحتّى يعطى اللّفظ حقّه من البيان، ويوفّر على الحديث قسطه من الصّواب)، فجاء بـ(نعم) وهو حرف جواب، وكأن الكاتب شخص من نفسه مخاطباً يرد بالجواب لهذا الطلب السابق، وأتى بـ(حتى)، التي لانتهاء الغاية مكررة، لبيان أن التأنق في اختيار اللفظ، لابد أن يكون غاية المتكلم، وجاء بعدها المصدر مؤول من (أن+ الفعل)، للتأكيد على ضرورة بيان اللفظ ووضوحه، فلا يكون غريباً وحشياً ، وكذا الحديث بأكمله، لابد أن يكون فصيحاً بمنأى عن اللحن والخطأ ، وجاء بصيغة الفعل المضارع مكررة في(يعطى، يضع ، يوفر ، يجزل)، للتأكيد على ضرورة تجدد واستمرارية تلك الأفعال مع كل معنى، يراد التعبير عنه مراعياً فيها توخى معانى النحو والاعراب ، وجاء بالسجع بين (جميعها ، مواضعها) وجناس الاشتقاق المغاير بين(ويصفها صفتها)، ليمتع قارئه بجانب إقناعه، والجناس من الوسائل الصوتية المؤثرة، التي وظفها الجاحظ في رسائله، لاستقطاب مخاطبه، وإثارة حسه بوصفه يحقق موسيقى داخلية ، وهو من المنبهات الأسلوبية التي ترتكز على القيم الصوتية الخالصة، التي تفرز إيقاعات معينة ذات

تناسب صوتي أو دلالي[١]؛ لذا لم يكتف الجاحظ بجناس الكلمات ، ولكنه عمد إلى جناس الحروف من خلال تكرار حرف(الهاء) (سبع عشرة) مرة في هذه الفقرة ، وهو من الحروف الحلقية المهموسة، وهو حرف لين هش يتناسب مع أسلوب النصيحة الذي يتوجه الكاتب به لمخاطبه.

ومن هنا اتضح لنا جلياً أن إيقاع الحروف من العناصر التي تزيد النص جمالاً ، ورفع مستوى الإمتاع فيه، ولاسيما حين تمتزج فيه الفطرة والطبع مع الإبداع والصنعة والاحتراف، ليكون أسلوب الكاتب أكثر رقياً في الصياغة والتعبير ، وهذا ما عناه الجاحظ في رسائله لكونه الأديب الحاذق الذى يقدر الإيقاع المناسب للنص.

(١) البلاغة البصرية للجناس القرآني في منظور الخط والزخرفة الإسلامية، د أحمد فتحي رمضان، ص(٣٨٢)، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر عدد ٢٣ ، السنه الثالثة والعشرون ٢٠٠٠م.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خير البشر وعلى آله الأطهار.

أما بعد

من خلال تلك الجولة مع نفحة من نفحات التراث العربي الفياض ولكل الولعين بعبقرية الجاحظ أمير البيان العربي في رسالته(تفضيل النطق على الصمت) والتي دافع فيها عن النطق ، وحاول إقناع مخاطبه برأيه ، وبعد العرض والتحليل لهذه الرسالة وإظهار بلاغة الكاتب في إقناع وإمتاع مخاطبه هناك نتائج كثيرة توصلت إليها منها :

١- حقق الكاتب من خلال تكرار جمله الدعائية عنصر الإمتاع واستمالة قلب المخاطب ، وجاء كل تركيب فيها منسجماً، مع ما يريده الكاتب لمخاطبه من الإمتاع والانقياد للحق والبعد عن الباطل والسعادة والحفظ والبقاء مع تزاوج الجمل في التركيب وتساويها.

٢- جاءت الرسالة مشحونة بعدد من الحجج والأدلة العقلية والنقلية والتي تساعد على الإقناع ، وبذلك نجح في عرض فكرته، ورد رأى مخاطبه بروح فنية خالصة، وأسلوب أدبى جميل ، كما عكست منهج الكاتب الفلسفي القائم على العقل في استخدام الأساليب التي تخدم غرضه.

٣- نجح الجاحظ بألوانه البلاغية(بيان، معان، بديع) في بيان أهمية النطق ولفت الأذهان إلى دوره المؤثر في حياة البشر، مع الاستطراد في عرض الفكر، لتجديد نشاط قارئه ومحاولة إقناعه بفكرته.

٤- ظفر علمي المعاني والبديع بالنصيب الأوفر في الرسالة من خلال استخدام الأساليب التي تخدم الهدف من الرسالة، وتحقق عنصر الإقناع.

٥- ألحَّ الكاتب في الإقناع بفكرته من خلال استخدامه لأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء بكثرة، والتقديم، والشرط، إلى جانب استخدامه لطرق التأكيد المتعددة.

٦- من مظاهر بلاغة الإقناع في الرسالة، أن أساليب النفي جاءت متمثلة في أداتي(لا، لم) وهما من أوسع الحروف دلالة على النفي، لما في(لا) من مد يتناسب مع استطالة النفي ، وكذلك (لم) وما تفيده من تأكيد لنفى الحدث أصلا.

٧- كان الوصل بـ(الواو) في الرسالة من الظواهر التركيبية المهمة، التي تميزت بإمكانياتها الجمالية والأسلوبية، والتي أدت دورها في الإقناع والإمتاع للمتلقي، من خلال الربط بين الجمل عضوياً وموضوعياً، وترتيب وتنظيم وتماسك عناصر النص.

٨- كثرة أسلوب التكرار في الرسالة ، وتنوع ما بين تكرار للحرف ، والكلمة ، والجملة وجاء ليؤكد على رغبة الكاتب القوية، في الحفاظ على جرس الجمل، وانسجام الألفاظ ، وتأكيد المعاني في ذهن قارئه، والعمل على إعمال عقله .

٩- استثمر الجاحظ الجناس، ليحقق إيقاعاً مؤثراً في رسالته، والاتصال بين النص والمتلقي، وبالتالي يحقق عنصر الإقناع والإمتاع.

١٠- تحقق عنصر الإقناع في الرسالة، من خلال تقنية الطباق، حيث جاءت محفزاً دلالياً في اثبات البنية للنص، بجانب الأداء الموسيقى الناشئ عنه، والذى عمل بدوره على توحيد أجزاء النص، بالإضافة إلى التأثير على المتلقي، وجذب انتباهه وإمتاعه.

١١- يمثل التناص أحد الظواهر الأسلوبية المهمة، والتي كان لها أثر بالغ في تحقيق عنصر الإقناع في الرسالة، كما كشف عن ثقافة الكاتب الدينية.

١٢- نجد أن الأصوات في الرسالة، قد لعبت دوراً فاعلاً في تحقق عنصري الإقناع والإمتاع وأن الحروف، كانت عبارة عن ريشات مصورة للمعاني، وترسم الكلمة حركةً وصوتاً ليتسق مع المعنى، وكذلك الجملة.

١٣- اعتمد الكاتب في النصف الأول من رسالته على المذهب الكلامي، كوسيلة من وسائل إقناع مخاطبه، من خلال طرح المقدمات التي تليها النتائج.

التوصيات:

هذا ،،، ويوصي الباحث بالاهتمام بتراثنا العربي التليد، وبخاصة فن الرسائل الأدبية للجاحظ ، فهو مجال خصب للبحث البلاغي ، حيث طبق الجاحظ في رسائله آراءه البلاغية، فكانت مورداً عذباً للباحثين البلاغيين يجمع بين النظرية والتطبيق.

كما أوصى بضرورة الاهتمام بالبلاغة الصوتية وفردها بأبحاث تظهر علاقة البلاغة بالصوت وإعطائها ما تستحقه من البحث والدراسة؛ لأن للإيقاع الصوتي المؤثر دلالات بلاغية لا تقل في أهميتها عن دلالة الألفاظ.

وختاماً.... فهذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال بحثي، فإن أصبت فذلك أملي، وإن فاتني شيء، فحسبي أجر المجتهدين، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع.

١- الإبداع الفنى فى ديوان (نداء القمم) د/ صلاح الدين محمد ط١ ،١٤٢٤هـ ،٢٠٠٣م.

٢- الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب العربية ، د/ محمود شيخون، ط٢,١٩٨٤م ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة.

٣- أسرار الحروف، أحمد زرقة، دار الحصاد، دمشق، ط١ ،١٩٩٣م.

٤- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د/ مجيد عبدالمجيد، المؤسسة الجامعية ، ط١، ١٩٨٤م.

٥- الإقناع الأدبي والبلاغي والإشهاري لمحمد البوزيدي (مقالة).

٦- البديع في نقد الشعر للشيزري، ت/ الدكتور أحمد أحمد بدوي ، الدكتور حامد عبد المجيد ، مراجعة :الأستاذ إبراهيم مصطفى ، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الإقليم الجنوبي ، الإدارة العامة للثقافة.

٧- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب، ط١٧-١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٨- البلاغة العالية "علم المعاني" عبدالمتعال الصعيدي تقديم. ا.د/عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب ، ط٢، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

٩- البلاغة العربية بين الإقناع والإمتاع ، د/ مسعود بودوخة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط١، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٥م.

١٠- البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي دار القلم، دمشق، بيروت، ط١٤١٦،١هـ ،١٩٩٦ م.

١١- البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي هنريش بليت، ترجمة د /محمد العمري، أفريقيا الشرق للطباعة ، بيروت لبنان ، الدار البيضاء.

١٢- البلاغة والتحليل الأدبى ، د/ أحمد أبو حاقة ، ط ١، دار العلم للملايين ، ١٩٨٨م.

١٣- البيان والتبيين للجاحظ ، دار الهلال، بيروت ، ١٤٢٣ هـ.

١٤- تحاليل أسلوبية ، محمد الهادي الطرابلسي، دار الجنوب ، تونس ١٩٩٢م.

١٥- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن الإصبع العدواني، تحقيق د/ حفني محمد شرف ، الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.

١٦- التصوير البياني دراسة تحليليه لمسائل علم البيان ، أ.د/محمد أبو موسى .

١٧- التعريفات للجرجاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

١٨- الجاحظ ، حنا الفاخوري ، دار المعارف ١٩٥٦م .

١٩- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠- الجنى الداني فى حروف المعاني لأبى محمد المرادي تحقيق: د/ فخر قباوة ، أ/ محمد نديم فاضل، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ١٤١٣هـ،١٩٩٢م.

٢١- جـواهر البلاغـة فـي المعـاني والبيـان والبـديع للهاشـمي ت/ د. يوسـف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.

٢٢- الحديث النبوي مصطلحه، وكتبه ، وبلاغته ، محمد الصباغ ط٣ ، ١٩٧٧م.

٢٣- حروف المعاني والصفات، عبد الرحمن الزجاجي، أبو القاسم ، المحقق: علي توفيق الحمد الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٤م.

٢٤- خاص الخاص، الثعالبي ، تحقيق حسن الأمين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان.

٢٥- خصائص الحروف العربية ومعانيها ، حسن عباس ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٨م.

٢٦- دراسة الصوت اللغوي د/ أحمد مختار عمر، ط٤ عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٢٧- دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق ، ا/محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٢٨- رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، عام النشر: ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م.

٢٩- سخرية الجاحظ من خلال رسالة التربيع والتدوير. د/ عرفه حلمى ، مكتبة الآداب ، ط١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٣٠- الصبغ البديعي في اللغة العربية د/ أحمد موسى، دار الكتاب العربي، ط١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م.

٣١- الصحاح للفارابي ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٣٢- الصناعتين لأبى هلال العسكري ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العنصرية ، بيروت ،عام النشر ١٤١٩ هـ.

٣٣- عندما نتواصل نغيِّر، عبدالسلام عشير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج.

٣٤- الفروق اللغوية لأبى هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ت/ محمد إبراهيم سليم ، دار القلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر.

٣٥- فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي ، ط١، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

٣٦- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د/شوقي ضيف، ط٩، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٠م.

٣٧- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ، وعلم البيان، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.

٣٨- في صحبة النص ، د/ طارق شلبي ، دار البرق . القاهرة.

٣٩- قراءة جديدة في (نقد الشعر لقدامة بن جعفر) ، د/ عبدالحليم محمد شادي.

٤٠- قراءة في الأدب القديم ، د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبه ، ط٢ ، ١٩٩٨م.

٤١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣- ١٤٠٧ هـ.

٤٢- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤ هـ.

٤٣- مباحث في وجوه تحسين الكلام ، ا.د رفعت السوداني ، مطبعة الأمانة ، ط١، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

٤٤- المثل السائر لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة . القاهرة.

٤٥- المصباح المنير للحموي، المكتبة العلمية، بيروت.

٤٦- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، سعد الدين التفازاني تحقيق د:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط١، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

٤٧- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة(إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار) دار الدعوة.

٤٨- مفتاح العلوم ،لأبى يعقوب يوسف السكاكي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط٢، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م .

٤٩- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٠- المقتضب، أبو العباس المبرد تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت.

٥١- مناهج البحث في اللغة ، د/ تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط٢، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

٥٢- المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية.

٥٣- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبدالحكيم بلبع، مكتبة وهبه، ط٣، مصر ،١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

٥٤- النحو والدلالة فى بنية النص الشعرى د/ محمد السيد سعيد دار الحكمة القاهرة ط١ ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٥٥- النكت في إعجاز القرآن الكريم ضمن ثلاث رسائل للرماني ، تحقيق محمد خلف الله ، د/ محمد زغلول سلامة ، ط٣، ١٩٧٦م، دار المعارف.

ثالثاً: الرسائل العلمية.

١- أساليب الاستفهام في شعر الجواهري دراسة بلاغية ونحوية وإيقاعية رسالة ماجستير ، جامعة البصرة ، كلية التربية ٢٠١٠م.

٢- الإقناع في قصة إبراهيم عليه السلام – مقاربه تداولية- رسالة ماجستير ، إعداد بو صلاح فايزة ، إشراف د/ عيسى عبدالحليم ، ا. د عزوز أحمد ، ٢٠٠٩، ٢٠١٠م.

٣- رسائل الجاحظ دراسة في شعرية النثر العربي، رسالة دكتوراه، محمود كاظم موات، جامعة البصرة كلية التربية للعلوم الإنسانية.

رابعاً: الأبحاث العلمية.

١- أراك عصى الدمع لأبى فراس الحمداني، دراسة بلاغية نقدية ، د/ صلاح حبيب سليمان ، مجلة اللغة العربية بأسيوط ، العدد(٣١) الجزء الرابع.

٢- أسلوب الجاحظ، د/ سمير روحي الفيصل، مجلة التراث العربي، عدد(٦١)، ١٩٩٥م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا.

٣- البلاغة البصرية للجناس القرآني في منظور الخط والزخرفة الإسلامية، د/ أحمد فتحي رمضان، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر عدد(٢٣) ، السنه الثالثة والعشرون ٢٠٠٠م.

٤- تجليات الجمال في أسلوب القصر، د/ عبدالرحيم محمد الهبيل ، مجلة الجامعة الإسلامية سلسلة الدراسات الإنسانية ، مجلد التاسع عشر، العدد الثاني يونيو ٢٠٠١م.

٥- حروف المعاني وبلاغة النص، د/ صلاح الدين غراب، مؤتمر كلية اللغة العربية بالزقازيق ٢٠٠٩م .

٦- مدخل إلى الحجاج ، أفلاطون وأرسطو، وشايم ، وبيرلمان ، د/ محمد الوالي، مجلة عالم الفكر، العدد(٢) مجلد(٤٠)أكتوبر، ديسمبر ٢٠١١م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	ملخص البحث باللغة العربية	٣٣٠١
٢	ملخص البحث باللغة الانجليزية	٣٣٠٢
٣	المقدمة	٣٣٠٣
٤	التمهيد	٣٣٠٦
٥	التعريف بالرسالة	٣٣١٢
٦	نص الرسالة	٣٣١٤
٧	المعنى العام للرسالة	٣٣١٩
٨	المبحث الأول: بلاغة الإقناع والإمتاع في حجج تفضيل الصمت.	٣٣٢٠
٩	المبحث الثاني: بلاغة الإقناع والإمتاع في دحض حجج من فضل الصمت.	٣٣٣٥
١٠	المبحث الثالث: بلاغة الإقناع والإمتاع في ذكر أدلة تفضيل الكلام على الصمت.	٣٣٤٠
١١	المبحث الرابع: بلاغة الإقناع والامتاع في ضوابط من يقدر على الإبانة.	٣٣٨٣
١٢	الخاتمة	٣٣٨٧
١٣	فهرس المصادر والمراجع	٣٣٩٦